ثالثاً: التفسير والحديث

الكلام المنصف في القرآن الكريم وأثره
في إظهار الحجة على الخصم

إعداد

د. عبدالله محمد سعيد الخولاني

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المشارك

بقسم الدراسات الإسلامية - كلية الآداب

جامعة حضرموت للعلوم والتكنولوجيا

الكلام المنصف في القرآن الكريم وأثره في إظهار الحجة على الخصم

د. عبدالله محمد سعيد الخولاني

ملخص البحث

البحث الموسوم: (الكلام المنصف في القرآن الكريم وأثره في إظهار الحجة على الخصم) يتناول أساليب الجدل بين خصمين على قضية ما من القضايا، أحدهما محق والآخر مبطل، ومن أجل إقامة الحجة على المبطل يقوم المحق بمخاطبة خصمه المبطل بأسلوب يستميله برفق وأناة؛ ليصغي إلى ما يلقيه إليه، حتى يبلغ النهاية من الإقناع والمجادلة.

هذا الأسلوب كان جاريا على ما يَتَخاطَبُ به العربُ من استعمالِ الإنصاف في محاوراتِهم، استعمله القرآنُ الكريم؛ لأنه عربي نزل بلغة العرب، وبتتبع النظم القرآني الكريم في بيانه لعدد من الأساليب الحكيمة والبليغة، التي استعملها؛ فيما يتعلق بالكلام المنصف في إقامة الأدلة على وحدانية الله تعالى، وعلى صدق رسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فيما يبلغونه عن ربهم؛ بأسلوب يخاطب فيه الخصم، كأنه محق؛ من أجل أن يوصله إلى الحق عن اقتناع؛ ويجعل صاحبه يعيش في حالة ثبات؛ على ما آمن به ثباتا لا ينازعه ريب، ولا يخالطه شك.

وهذا البحث انبنى من (مقدمة، وخمسة مطالب، وخاتمة):

فالمقدمة: تناولت الافتتاح، وموضوع الدراسة، وأهميتها، ودوافعها، وأهدافها، وحدودها، ومنهج البحث فيها،

وفي المطلب الأول: التعريفات، وفي المطلب الثاني: إثبات وحدانية الله في الربوبية والألوهية، وفي المطلب الثالث: إثبات أن القرآن وحي من عند الله، وفي المطلب الرابع: إثبات النبوة وصدق الأنبياء، وفي المطلب الخامس: بيان إثبات غلبة الحق على الباطل، ثم خاتمة تضمنت أهم النتائج.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، الذي أنزل كتابا ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ هود: ١.

نحمده تعالى القائل: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ﴾ فصلت: ٣، وجعل آياته هدى وبشرى للمؤمنين، وحجة دامغة وبرهانا قاطعا للمكذبين الضالين.

والصلاة والسلام على نبينا ورسولنا الصادق الأمين ـ محمد بن عبدالله ـ الذي أنزل الله عليه القرآن ليخرج به ﴿ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ إبراهيم: ١ وعلى آله وأصحابه ومن والاه وسار على نهجه واستن بسنته إلى يوم الدين وسلم تسليما كثيرا. وبعد:

فإن الله خلق الإنسان، وعلمه البيان، وأوجد فيه طباعا متنوعة، ومتقلّبة فقال الله عنه: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا﴾ المعارج:١٩ - ٢١ وقال: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ النساء: ٢٨ وقال: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ الإسراء: ١١ وقال: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ الإسراء: ٦٧ وقال: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ الإسراء: ١٠٠ وقال: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٍ جَدَلًا﴾ الكهف: ٥٤ وقال: ﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ القيامة: ٥، هذه الطباع التي أشارت إليها الآيات القرآنية قد تتوافق في هذا الإنسان أحيانا، وتتباين أحيانا أخرى؛ إلا أن الله تعالى جعل فيه عقلا يقوده إلى الخير، ليوصله إلى التقارب؛ ومنه إلى التآلف بين الناس.

وركز في فطرة الإنسان على احترام العقل، وتقدير مكانته، وجعل الحوار الحسن طريقا للتعارف، والتفاهم، فمن احترم عقله، احترمه الناس، ومن سفه عقله فقد سفه نفسه.

لذلك فإن القرآن الكريم وجه الناس عموما إلى حسن التخاطب، فقال تعالى: ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ البقرة: ٨٣. وقال: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ الإسراء: ٥٣ بمعنى يكون خطابهم مع عموم الناس برفق وتلطف، ومن هذا المنطلق جاءت هذه الدراسة القرآنية الموضوعيَّة لتتناول أسلوبا من أساليب النظم القرآني؛ وسَمْتُها: بـ (الكلام المنصف في القرآن الكريم وأثره في إظهار الحجة على الخصم).

موضوع الدراسة:

هو تتبع للنظم القرآني الكريم في بيانه لعدد من الأساليب الحكيمة والبليغة، التي استعملها القرآن الكريم؛ فيما يتعلق بالكلام المنصف في إقامة الأدلة على وحدانية الله تعالى، وعلى صدق رسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فيما يبلغونه عن ربهم بأسلوب يخاطب فيه الخصم، كأنه محق؛ من أجل أن يوصله إلى الحق عن اقتناع؛ ويجعل صاحبه يعيش في حالة ثبات؛ على ما آمن به ثباتا لا ينازعه ريب، ولا يخالطه شك.

أهمية الدراسة:

تبرز أهمية هذه الدراسة في النقاط الآتية:

١. تضمنت الدراسة الاستدلال على إثبات وحدانية الله في الربوبية والألوهية، والاستدلال على إثبات أن القرآن الكريم وحي من عند الله، والاستدلال على إثبات النبوة، وصدق الأنبياء، والاستدلال على بيان إثبات الحق وغلبته على الباطل. وهذه القضايا كلها لها أهمية عظيمة في حياة المسلمين، لا تستقيم لهم حياة دونها.

٢. أن هذا العصر وسم بعصر الحوارات، والمجادلات، والمناظرات، والدعوة إلى الحريات، وصار الناس يكتبون عنها، ويدعون إليها، كل من وجهة نظره.

وأن هذا التوجه جاء حديثا، ونال درجة عالية من التقدم والرقي الحضاري باستعمال الفكر، والعقل؛ والوصول ـ عند البعض ـ إلى أن العقل لا حدود له، ولا حواجز تمنعه، وله أن يخوض في أي من القضايا الكونية، دون مراعات لدين أو قيم، أو أخلاق.

٣. دعوى أن الإنسان لم يكن قد تعامل بالحوار ولا خاضه، ولا أتيحت له فرصة في زمن سابق؛ بأن يقول رأيه، ولا أن يستعمل فكره، ولا يدبر أمره؛ رميا بالغيب، ودعوى آثمة.

مع أن ظهور الحوارات، والمناظرات، والمجادلات في القرآن الكريم مع أقوام اختلفت أراؤهم، وتعددت فِكَرهم من وقت مبكر.

٤. لا تخلو الكثير من الحوارات، والمناظرات، والمساجلات، المعاصرة من جنوح، وتعصب، ومكايدة، وتزمت، واستعلاء، وتأثم، وخروج عن الجادة، مع ما أتيح لهم من أساليب متعددة في الحوار والجدل قصد الوصول إلى الإنصاف، ولا منصف.

فجاءت هذه الدراسة لتثبت أن الله تعالى قد أكَّدَ مبدأ الحوار بطرق عديدة في القرآن الكريم، مع أقوام عهد نزول القرآن، وقد جعل الله في الإنسان من صفات الجدل ما يوصله إلى الفجور، هذه الدراسة تبين مثل هذه المواقف فنالت أهمتها منها.

الدراسات السابقة:

لم أقف ـ بعد بحث وتتبع ـ على دراسة بحثت بهذا التوصيف (الكلام المنصف في القرآن الكريم). والذي تم الوقوف عليه من الدراسات هي دراسات عديدة تنطلق في الكلام عن جدل القرآن من توجهات مختلفة، إما أن تكون لغوية دلالية، أو أسلوبية، أو موضوعية، أو وصفية تحليلية؛ لبعض نماذج من حوارات الرسل لأقوامهم، وموضوعي ليس من هذه الأنواع؛ بل له أسلوب مختلف عنها، ومستقل في عرضه. لذا عزمت أن آخذه بالدراسة، لغلبة ظني أنه لم يدرس، ولم يتناوله أحد بدراسة مستقلة، إلا ما وجدته عند بعض المفسرين في كتبهم.

دوافع الدراسة:

دفعني لدراسة هذا الموضوع ما يأتي:

١. أن المتتبع لبعض آيات القرآن الكريم يلحظ أن الله قد دعا الإنسان إلى التعقل والتدبر والتفكر فقال: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ النحل: ١١ وقال: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ النحل: ١٢ وقال: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ النحل: ١٣ وأمره بذلك وحث عليه؛ ليكون ذا عقل نقي؛ يتسع أفقه ليدرك الأمور ويزنها بموازينها.

٢. ما ورد في القرآن الكريم من قضايا الحوارات، والمجادلات؛ التي تؤكد أن الله تعالى قد جعل في الإنسان من صفات الجدل، ما تدعوه إلى ذلك. فقال تعالى: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ المجادلة: ١ وقال: ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ الكهف: ٥٤ وقال: ﴿ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ ﴾ الأنفال: ٦. فهذه ثلاث

آيات تنص على وقوع الجدل من الإنسان في أزمنة مختلفة مما يدل صراحة على أن الله قد مكن فيه هذه الصفة؛ فيستعملها في حق، أو باطل.

٣. أن الله أكَّدَ مبدأ الحوار بطرق عديدة، فعرض حوار الله مع خلقه بواسطة رسله، ومع ملائكته، ومع إبليس، وهو المالك القادر ـ سبحانه ـ ذو القوة، والقهر والغلبة، يكفي منه ـ تعالى ـ أمره لعباده، وجميع خلقه بالطاعة فيلزمون؛ كما أنَّ دعوات الرسل كلها كانت محكومة بالحوار مع أقوامهم، وقد أطال القرآن في عرض كثير من قضايا الحوارات والمناظرات التي حدثت بين الرسل وأقوامهم.

٤. لم ينكر القرآن الكريم في باب الكلام عن الحوار والمجادلة أمراً كما أنكر على المحاور المكابر والمعاند والأفَّاك الأثيم الرافض لنتائج الحوار المنصف. فقال تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ الجاثية: ٧ – ٩ وقال: ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾ فصلت: ٥، ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٦) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ لقمان: ٦ – ٧ أن القرآن الكريم استعمل الكلام المنصف ليكون سلوكا للإنسان في جميع مجالات الحياة، من أجل أن يصل إلى الحق بقناعة عقلية، وارتياح نفسي، واطمئنان وجداني، لكي يعيش المجتمع الإنساني على إخاء وتواصل، وأمن وأمان، وحب وسلام.

هذه الدوافع وغيرها دفعت بي إلى أن أتتبع هذه الدراسة، من خلال الآيات القرآنية التي أظهرت أن محاكاة الخصم والتسليم له على أنه محق؛ من باب النصفة.

أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى:

١. التعرف على القضايا التي تضمنها الكلام المنصف في القرآن الكريم، ومدى أهميتها، ومكانتها بين بقية القضايا التي يتناولها القرآن، وتتبع الآيات التي تتناول النظم القرآني في الكلام المنصف.

٢. التعرف على بعض الطرق، والأساليب التي استعملتها الآيات القرآنية في الكلام المنصف، والأدوات والمعاني التي استخدمت في هذا الموضوع.

حدود الدراسة:

تقتصر هذه الدراسة على الآتي:

١. النماذج التي توصلت إليها الدراسة من خلال الآيات القرآنية التي ورد فيها التسليم للخصم على أنه محق من باب إنصافه، أو بيان أن أحد الفريقين صاحب حق.

٢. القضايا التي تناولتها الدراسة فيما يتعلق بإثبات وحدانية الربوبية والألوهية، وإثبات أن القرآن وحي من عند الله، وإثبات النبوة وصدق الأنبياء، وبيان إثبات الحق وغلبته على الباطل.

منهج الدراسة:

سلكت في بحث هذه الدراسة على منهجين من المناهج البحثية على النحو الآتي:

١. المنهج الاستقرائي: وذلك بتتبع الآيات القرآنية التي تناولت موضوع البحث، كما تتبع الباحث كتب التفسير، وأقوال أصحابها، ومقارنة بعضها ببعض؛ للأخذ منها

ما هو متصل بالموضوع كما قام بنسخ الآيات القرآنية من مصحف المكتبة الشاملة، ثم نقل أقوال المفسرين الذين تناولوا عنوان البحث في كتبهم التفسيرية ـ وهم قلة ـ وعزو كل قول إلى صاحبه من مصدره الأصلي دون واسطة، وتوثيق ذلك على هامش الدراسة؛ مكتفيا باسم الكتاب، ومؤلفه باختصار.

٢. المنهج التحليلي: وذلك بدراسة النص المنقول: وتحليل مضمونه، وربطه في سياق الموضوع، والتعليق عليه، وإبراز بعض أدوات الحوار التي من خلالها يتضح المعنى الذي يدل استعماله على النصفة، وصدَّرتُ الآيات القرآنية التي تتضمن النموذج؛ مَطْلع كل موضوع، ثم أتبعتها بكلام المفسرين عنها، بما يتناسب مع الموضوع.

مخطط الدراسة:

هذه الدراسة اشتملت على (مقدمة، وخمسة مطالب، وخاتمة) وبيانها بما يأتي:

المقدمة: وتناولت الافتتاح، وموضوع الدراسة، وأهميتها، ودوافعها، وأهدافها، وحدودها، ومنهج البحث فيها، ومخططها، وتفصيله بما يأتي:

المطلب الأول: التعريفات.

المطلب الثاني: إثبات وحدانية الله في الربوبية والألوهية.

المطلب الثالث: إثبات أن القرآن وحي من عند الله .

المطلب الرابع: إثبات النبوة وصدق الأنبياء.

المطلب الخامس: بيان إثبات غلبة الحق على الباطل.

المطلب الأول: التعريفات:

يتناول هذا المطلب قراءة معجمية في مادة (ن ص ف) إذ تشير المعاجم اللغوية إلى أن معنى الكلام المنصف: مركب من كلمتين الأولى لفظ (ك ل م) والكلام نتناوله من وجهين:

أولا: بما يتعلق بالقرآن الكريم (فالقرآنُ كلامُ الله، وكَلِمُ الله، وكَلِماتُه، وكِلِمته، وكلامُ الله: لا يُحدّ ولا يُعدّ وهو غير مخلوق ـ تعالى الله عما يقول المُفْتَرُون علُوّاً كبيراً ـ).[١]

وثانيا: أن الكلام بالمعنى اللغوي: (اسم جنس يقع على القليل والكثير، والكَلِمُ لا يكون أقل من ثلاث كلمات، لأَنه جمع كلمة).[٢]

وهو تعريف مختصر، تركت التفصيل فيه، لأن مكانه كتب النحو.

والثاني: لفظ (منصف) من (ن ص ف) والنِّصْفُ: أَحد شِقَّي الشيء، والنَّصَفُ، والنَّصَفةُ أَحد جزأَي الكمال.

والإِنْصاف: إعطاء الحق وقد انتصف منه، وأَنصف الرجلُ صاحبه إِنْصافاً، وقد أَعطاه النَّصفَة.

قال ابن الأَعرابي: (أَنصف إذا أَخذ الحق، وأَعطى الحق، والنصَفة اسم الإنصاف، وتفسيره أَن تعطيه من نفسك النِّصَف، أَي: تُعْطيه من الحق كالذي تستحق لنفسك).[٣] والمُنْصِف فاعل النَّصَفَة.

والكلام المنصف اصطلاحا: هو أن لا يترك المجادل لخصمه موجب تغيظ واحتداد في الجدال.

ويسمى في علم المناظرة: إرخاء العنان للمناظر، ومع ذلك فقرينة إلزامهم الحجة قرينة واضحة.(٤)

ويسمى عند البلاغيين: (إخراج الكلام مخرج الشك في اللفظ دون الحقيقة لضرب من المسامحة وحسم العناد).(٥) وكذا يطلق عند أصحاب علوم القرآن.(٦) ويطلق عليه الاستدراج.

قال السمين الحلبي: (وإنما هذا الكلامُ جارٍ على ما يَتَخاطَبُ به العربُ من استعمالِ الإِنصاف في محاوراتِهم على سبيل الفَرَضِ والتقدير. ويُسَمِّيه أهلُ البيانِ: الاستدراجِ).(٧) ونقله عنه ابن عادل.(٨)

وانطلاقا من تتبع المادة المعجمية (ن ص ف) نلاحظ أنها تدور حول معانٍ أبرزها:

١. أن صاحب الحق لا يترك لخصمه موجب تغيظ واحتداد في الجدال.

٢. أن صاحب الحق له أن يخرج الكلام مخرج الشك في اللفظ دون الحقيقة لضرب من المسامحة وحسم العناد.

٣. أن المحق يَذْكُرُ لمخاطبهِ أمراً يُسَلِّمه، وإنْ كان بخلافِ ما يَذْكر حتى يُصْغي إلى ما يُلْقيه إليه، إذ لو بدأه بما يَكْرَهُ لم يُصْغِ.

٤. أن الغاية من الكلام المنصف: استمالة الخصم برفق وأناة وتؤدة حتى يبلغ النهاية من الإقناع والمجادلة.

٥. أن الكلام المنصف كان جاريا على ما يَتَخاطَبُ به العربُ من استعمالِ الإِنصاف في محاوراتِهم على سبيل الفَرَضِ والتقدير.

المطلب الثاني: الاستدلال على إثبات وحدانية الله في الربوبية والألوهية:

١. يقول الله جل جلاله: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ الأنعام: ٧٤ - ٨١

لقد خاض عدد كبير من المفسرين في تفسير هذه الآيات من سورة الأنعام على أن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان ناظرا في ملكوت السماوات والأرض؛ ليستدل بها على ربه، وخالقه، ومدبره، ومعبوده، الذي لا يعبد أحد بحق في الكون سواه، وساقوا من الأخبار والقصص ما يؤيد ذلك من المعجزات وخوارق العادات.

وساق عدد آخر منهم في تفسير هذه الآيات ـ أيضا ـ على أن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان مناظرا لقومه فيما كانوا فيه من الشرك وعبادة الأوثان والكواكب، وأن الشرك منفي عنه بعدد من آيات القرآن، والأنبياء جميعا معصومون

من ذلك قبل مبعثهم؛ كما هم معصومون بعد مبعثهم، وأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ استدرجهم فوافقهم بكلامهم ظاهرا مع براءته مما يشركون.

وهذا النوع من التفسير هو الذي سلك فيه أصحابه؛ ليثبتوا من خلاله أن القرآن قد استعمل الكلام المنصف، كما استعمله العرب في خطابهم، وعلى هذا؛ فإني سأتتبع هذا الأسلوب عند المفسرين.

قال صاحب الكشاف عند تفسيره لهذه الآيات: فقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيَ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ (جملة معترض بها بين المعطوف والمعطوف عليه. والمعنى: مثل ذلك التعريف والتبصير نعرِّف إبراهيم ونبصِّره. ملكوت السموات والأرض.

يعني: الربوبية والإلهية، ونوفقه لمعرفتها، ونرشده بما شرحنا صدره، وسدَّدنا نظره، وهديناه لطريق الاستدلال. وليكون من الموقنين: فعلنا ذلك.

ونري: حكاية حال ماضية، وكان أبوه ـ آزر ـ وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب، فأراد أن ينبههم على الخطأ في دينهم، وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤدٍّ إلى أن شيئاً منها لا يصحّ أن يكون إلهاً، لقيام دليل الحدوث فيها، وأن وراءها مُحدِثاً أحدثها، وصانعاً صنعها، ومدبراً دبر طلوعها وأفولها، وانتقالها ومسيرها، وسائر أحوالها.

﴿ هَٰذَا رَبِّي ﴾ قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطل، فيحكي قوله كما هو غير متعصب لمذهبه؛ لأن ذلك أدعى إلى الحق وأنجى من الشغب.

ثم يكرّ عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة ﴿ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴾ لا أحبّ عبادة الأرباب المتغيرين من حال إلى حال، المتنقلين من مكان إلى آخر، المحتجبين بستر، فإنّ ذلك من صفات الأجرام.

﴿ بَازِغًا ﴾ مبتدئاً في الطلوع ﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي ﴾ تنبيه لقومه على أنّ من اتخذ القمر إلهاً وهو نظير الكوكب في الأفول، فهو ضال، وأنّ الهداية إلى الحق بتوفيق الله ولطفه.

﴿ هَٰذَا أَكْبَرُ ﴾ من باب استعمال النصفة ـ أيضاً ـ مع خصومه. ﴿ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ من الأجرام التي تجعلونها شركاء لخالقها).(٩)

نلاحظ من كلام الزمخشري عن هذه الآيات أن إبراهيم استعمل الكلام المنصف مرات متعددة، قصد إنصاف خصمه مع علمه أنه مبطل، ولكنه يحكي قوله كما هو؛ من غير تعصب لمذهبه، لأن هذا الأسلوب أدعى إلى قبول الحق، وأنجى من الشغب.

فإذا ظهر له منهم معتقد خلاف معتقده كر عليهم بالحجة ليبطل دعواهم.

ويؤكد الزمخشري ـ أيضا ـ أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان مناظرا لقومه بهذا الأسلوب.

يؤيده ما كان عليه إبراهيم من حكاية الله عنه بقوله تعالى﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ الأنعام: ٧٩ أي للذي دلت هذه المحدثات عليه وعلى أنه مُبتَدؤُها ومُبتَدِعُها.

وقيل إن: هذا الذي كان من إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان من نظره واستدلاله في نفسه، فحكاه الله عنه. قال الزمخشري: (والأوّل أظهر ـ يعني مناظرته ـ لقوله: ﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي ﴾ الأنعام: ٧٧ وقوله: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ الأنعام: ٧٨).(١٠)

وقد جاء هذا الأسلوب القرآني على سبيل الوضع، وهو سوق مقدمة في الدليل لا يعتقدها إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ لكونها مسلمة عند غيره؛ لأجل

إلزامه بها، وهو مصطلح أهل الجدل. وقد اقتصر الزمخشريّ على هذا الوجه الفريد، وتبعه عدد من المفسرين بعده.

قال أحمد بن المنير: (التعريض بضلالهم ثانياً أصرح وأقوى من قوله أولاً: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴾ وإنما ترقى إلى ذلك، لأن الخصوم قد أقامت عليه بالاستدلال الأول حجة، فأَنِسُوا بالقدح في معتقدهم، ولو قيل هذا في الأول فلعلهم كانوا ينفرون، ولا يصغون إلى الاستدلال. فما عرّض ـ صلوات الله عليه ـ بأنهم في ضلالة؛ إلا بعد أن وثق بإصغائهم إلى تمام المقصود، واستماعهم إلى آخره.

والدليل على ذلك أنه ترقى في النوبة الثالثة إلى التصريح بالبراءة منهم، والتقريع بأنهم على شرك حين تم قيام الحجة، وتبلج الحق، وبلغ من الظهور غاية المقصود).[١١]

و الترقي في إثبات الحجة، وإقامة البرهان على الخصم أسلوب قرآني بديع، نبه إليه ابن المنير، وهي نكتة لطيفة منه، حيث أشار إلى أن هذا أسلوب فيه ترق من الأدنى؛ إذ صرح أولا بعدم حبه للآفلين، ثم ترقى إلى التعريض بضلال قومه وهو أشد وقعاً عليهم من الأول، ولو قيل لهم عكس ذلك لنفروا منه، ولم يصغوا إلى استدلاله.

وقد أجاد ابن عاشور في بيان معاني آيات سورة الأنعام المتعلقة بقصة إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ مع قومه حين حاورهم في شأن الإله الذي يستحق العبادة وحده.

سأسوق بعضا منها لوضوح ما جاء عنه في أسلوب الاستدلال حيث قال: (ولقوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي ﴾ وإنما يقوله لمخاطب، ولقوله عقب ذلك ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾، ولأنه اقتصر على إبطال كون الكواكب آلهة، واستدل به على

براءته مما يشركون، مع أنه لا يلزم من بطلان إلهية الكواكب بطلان إلهية أجرام أخرى، لولا أن ذلك هو مُدّعى قومه؛ فدل ذلك كله على أن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال ذلك على سبيل المجادلة لقومه وإرخاء العنان لهم؛ ليصلوا إلى تلقي الحجة، ولا ينفروا من أول وهلة، فيكون قد جمع جمعا من قومه وأراد الاستدلال عليهم.

وقوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ أي خالقي ومدبري فهو مستحق عبادتي. قاله على سبيل الفرض جريا على معتقد قومه؛ ليصل بهم إلى نقض اعتقادهم، فأظهر أنه موافق لهم؛ ليهشوا إلى ذلك، ثم يكر عليهم بالإبطال إظهارا للإنصاف وطلب الحق. ولا يريبك في هذا أن صدور ما ظاهره كفر على لسانه ـ عليه السلام ـ لأنه لما رأى أن ذلك طريق إلى إرشاد قومه وإنقاذهم من الكفر، واجتهد فرآه أرجى للقبول عندهم ساغ له التصريح به؛ لقصد الوصول إلى الحق وهو لا يعتقده، ولا يزيد قوله هذا قومه كفرا، كالذي يُكرَه على أن يقول كلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان، فإنه إذا جاز ذلك لحفظ نفس واحدة وإنقاذها من الهلاك، كان جوازه لإنقاذ فريق من الناس من الهلاك في الدنيا والآخرة أولى. وقد يكون فعل ذلك بإذن من الله تعالى بالوحي).[١٢]

وعلى هذا فالآية تقتضي أن قومه يعبدون الكواكب وأنهم على دين الصابئة وقد كان ذلك الدين شائعا في بلدان الكلدان؛ التي نشأ فيها إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأن الأصنام التي كانوا يعبدونها أرادوا بها أنها صور للكواكب وتماثيل لها على حسب تخيلاتهم.

(وجاء بلفظ ﴿ٱلْآفِلِينَ﴾ بصيغة جمع الذكور العقلاء المختص بالعقلاء بناء على اعتقاد قومه أن الكواكب عاقلة متصرفة في الأكوان، ولا يكون الموجود معبودا إلا وهو عالم.

ووجه الاستدلال بالأفول على عدم استحقاق الإلهية أن الأفول مغيب وابتعاد عن الناس، وشأن الإله أن يكون دائم المراقبة؛ لتدبير عباده فلما أفل النجم كان في حالة أفوله محجوبا عن الاطلاع على الناس، وقد بنى هذا الاستدلال على ما هو شائع عند القوم من كون أفول النجم مغيبا عن هذا العالم - يعني أن ما يغيب لا يستحق أن يتخذ إلها - لأنه لا يغني عن عباده فيما يحتاجونه حين مغيبه. وليس الاستدلال منظورا فيه إلى التغير؛ لأن قومه لم يكونوا يعلمون الملازمة بين التغير وانتفاء صفة الإلهية، ولأن الأفول ليس بتغير في ذات الكوكب؛ بل هو عرض للأبصار المشاهدة له، أما الكوكب فهو باق في فلكه ونظامه يغيب ويعود إلى الظهور، وقوم إبراهيم يعلمون ذلك فلا يكون ذلك مقنعا لهم).[١٣]

ولأجل هذا احتج بحالة الأفول دون حالة البزوغ؛ فإن البزوغ وإن كان طرأ بعد أفول لكن الأفول السابق غير مشاهد لهم فكان الأفول أخصر في الاحتجاج من أن يقول إن هذا البازغ كان من قبل آفلا.

وقوله: ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا ... ﴾ الخ. عطف على جملة محذوفة دل عليها الكلام. والتقدير: فطلع القمر فلما رآه بازغا، فحذفت الجملة للإيجاز، وهو يقتضي أن القمر طلع بعد أفول الكوكب.

ولعله اختار لمحاجة قومه الوقت الذي يغرب فيه الكوكب، ويطلع القمر بقرب ذلك، وأنه كان آخر الليل ليعقبهما طلوع الشمس. وأظهر اسم ﴿ٱلْقَمَرَ﴾ لأنه حذف معاد الضمير. والبازغ: الشارق في ابتداء شروقه، والبزوغ: ابتداء الشروق.

وقوله: ﴿ هَٰذَا رَبِّي ﴾ أفاد بتعريف الجزأين أنه أكثر ضوء من الكوكب فإذا كان استحقاق الإلهية بسبب النور فالذي هو أشد نورا أولى بها من الأضعف. واسم الإشارة مستعمل في معناه الكنائي خاصة وهو كون المشار إليه مطلوبا مبحوثا عنه.

وقوله: ﴿ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ قصد به تنبيه قومه للنظر في معرفة الرب الحق وأنه واحد، وأن الكوكب والقمر كليهما لا يستحقان ذلك مع أنه عرض في كلامه بأن له رباً يهديه وهم لا ينكرون عليه ذلك لأنهم قائلون بعدة أرباب.

وفي هذا تهيئة لنفوس قومه لما عزم عليه من التصريح؛ بأن له ربا غير الكواكب. ثم عرَّض بقومه أنهم ضالون، وهيأهم قبل المصارحة للعلم بأنهم ضالون؛ لأن قوله: ﴿ لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ يدخل على نفوسهم الشك في معتقدهم أن يكونوا ضلالا.

ولأجل هذا التعريض لم يقل: لأكونن ضالا، وقال: ﴿ لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ ليشير إلى أن في الناس قوما ضالين، يعني قومه.

وإنما تريث إلى أفول القمر فاستدل به على انتفاء الهيئة ولم ينفها عنه بمجرد رؤيته بازغا مع أن أفوله محقق بحسب المعتاد؛ لأنه أراد أن يقيم الاستدلال على أساس المشاهدة على ما هو المعروف في العقول؛ لأن المشاهدة أقوى.

وقوله: ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً ﴾ أي في الصباح بعد أن أفل القمر، وذلك في إحدى الليالي التي يغرب فيها القمر قبيل طلوع الشمس لأن الظاهر أن هذا الاستدلال كله وقع في مجلس واحد.

وقوله للشمس: ﴿ هَٰذَا رَبِّي ﴾ باسم إشارة المذكر مع أن الشمس تجري مجرى المؤنث؛ لأنه اعتبرها ربا، فروعي في الإشارة معنى الخبر، فكأنه قال: هذا الجرم الذي تدعونه الشمس تبين أنه هو ربي.

وجملة ﴿ هَٰذَآ أَكۡبَرُ ﴾ جارية مجرى العلة لجملة ﴿ هَٰذَا رَبِّي ﴾ المقتضية نقض ربوبية الكوكب والقمر وحصر الربوبية في الشمس ونفيها عن الكوكب والقمر، ولذلك حذف المفضل عليه لظهوره، أي هو أكبر منهما، يعني أن الأكبر الأكثر إضاءة أولى باستحقاق الإلهية.

وقوله: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴾، إقناع لهم بأن لا يحاولوا موافقته إياهم على ضلالهم لأنه لما انتفى استحقاق الإلهية عن أعظم الكواكب التي عبدوها فقد انتفى عما دونها بالأحرى.

وتسميته عبادتهم الأصنام إشراكا لأن قومه كانوا يعترفون بالله ويشركون معه في الإلهية غيره كما كان إشراك العرب، وهو ظاهر آي القرآن حيث ورد فيها الاحتجاج عليهم بخالق السماوات والأرض، وهو المناسب لضرب المثل لمشركي العرب بشأن إبراهيم وقومه، ولقوله الآتي: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ ﴾ الأنعام: ٨٢)(١٤).

هذا المعنى الذي نبه إليه الزمخشري، و تابعه عليه الطاهر بن عاشور في أن إبراهيم كان مناظراً سبقهما إليه أصحاب معاني القرآن.

فهذا الفراء يقول عند قول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ ﴾ وساق قولين: أحدهما: (إنما قال: هذا ربّي استدراجا للحجَّة على قومه ليعيب آلهتهم أَنها ليست بشيء، وأن الكوكب والقمر والشمس أكبر منها ولسن بآلهة)(١٥)

وعبارته هذه تؤكد أن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان مناظرا لقومه يستدرجهم في إقامة الحجة عليهم.

وقال سعيد بن مسعدة ـ الأخفش ـ (وأما قوله للشمس ﴿ هَٰذَا رَبِّي ﴾ فقد يجوز على "هذا الشيءُ الطالِعُ رَبِّي". أَوْ على أَنَّه ظهرت الشمس وقد كانوا يذكرون الرب في كلامهم قال لهم ﴿ هَٰذَا رَبِّي ﴾. وإنما هذا مثل ضربه لهم ليعرفوا إذا هو زال أنه لا ينبغي أن يكون مثله إلها، وليدلهم على وحدانية الله، وأنه ليس مثله شيء).(١٦)

وكلامه هذا يؤكد أن في الكلام تقديراً، أو أنه أرخى العنان لقومه ليناظروه، ويؤكده قوله: " وإنما هذا مثل ضربه لهم".

وجاء في معاني النحاس قوله: (والجواب عندي أنه "قال هذا ربي" على قولكم؛ لأنهم كانوا يعبدون الأصنام، والشمس والقمر، ونظير هذا قول الله جل وعز: " أين شركائي" وهو جل وعز لا شريك له، والمعنى أين شركائي على قولكم، ويجوز أن يكون المعنى "فلما جن عليه الليل رأى كوكبا " يقولون هذا ربي، ثم حذف القول كما قال جل وعز: " والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم" فحذف القول).(١٧)

وكلام النحاس جاء موافقا لكلام الأخفش، ومثله كلام الزجاج؛ حيث قال عند نفس الآيات: (والذي عندي في هذا القول أنه قال لهم: تقولون هذا ربي، أي هذا يدبرني؛ لأنه فيما يروى أنهم كانوا أصحاب نجوم، فاحتج عليهم بأن الذي تزعمون أنه مدبر إنما يُرى فيه أثر مدبر لا غير).(١٨)

وقال الرازي: (أن هذه الواقعة إنما حصلت بسبب مناظرة إبراهيم ـ عليه السلام ـ مع قومه، والدليل عليه أنه تعالى لما ذكر هذه القصة قال: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ

ﵟءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦﵞ ولم يقل على نفسه، فعلم أن هـذه المباحثـة إنـما جـرت مـع قومه لأجل أن يرشدهم إلى الإيمان والتوحيد. لا لأجل أن إبراهيم كان يطلب الـدين والمعرفة لنفسه).[١٩]

وما أعجب الرازي وهو يسوق المناقشات، وأساليب المناظرات ليفحم الخصم، ويقيم عليه الحجة حيث أطال في الكلام عن تلك الآيات. ملخصه: (فكلام إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان من بـاب الموافقـة ظـاهراً للقـوم، حتـى إذا أورد علـيهم الدليل المبطل لقولهم كان قبولهم له أتم، وانتفاعهم باستماعه أكمل ـ ثـم قـال ـ: وممـا يقوي هذا القول أنه تعالى حكى عنه مثل هذا الطريق في موضع آخر وهو قوله تعالى: ﵟفَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ ٨٨ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞﵞ الصافات: ٨٨ – ٨٩ وذلك لأن القوم كانوا يستدلون بعلم النجوم على حصول الحوادث المستقبلة، فوافقهم في الظـاهر، مـع أنـه كان بريئاً عنه في الباطن؛ ليتوصل بذلك إلى كسر الأصنام، فمتى جازت الموافقة لهـذا الغرض؛ فلم لا تجوز في مسألتنا لمثل ذلك؟ !)[٢٠]

قال جمال الدين القاسمي ـ عند (قوله تعالى: ﵟهَٰذَآ أَكۡبَرُﵞ الأنعام: ٧٨ أي: أكبر الكواكب جرماً، وأعظمها قوة، فهو أولى بالإلهيـة. وفيـه تأكيـد لمـا رامـه ـ عليـه الصلاة والسلام ـ من إظهار النصفة، مع إشارة خفية إلى فساد دينهم من جهة أخرى، ببيان أن الأكبر أحق بالربوبية من الأصغر).[٢١]

وقال ـ أيضا ـ بعد أن ساق عددا من أقوال المفسرين ـ: (وبالجملة: فالآية بيـان لكيفية استدلاله ـ عليه الصلاة والسلام ـ ووصـوله إلى رتبـة الإيقـان).[٢٢] فأكـد أن الأسلوب الذي استعمله القرآن الكريم حكاية عن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسـلام ـ كان استدلالا؛ ليصل من خلاله إلى إقامة الحجة على قومه استدراجا، وأنه وصـل إلى رتبة اليقين في بيان ما هو حق.

وقال صاحب أضواء البيان: (قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ﴾ الأنعام: ٧٦ الآيات.

قوله: ﴿ هَٰذَا رَبِّى ﴾ الأنعام: ٧٦ في المواضع الثلاثة محتمل؛ لأنه كان يظن ذلك، كما روي عن ابن عباس وغيره.

ومحتمل: لأنه جازم بعدم ربوبية غير الله. ومراده هذا ربي في زعمكم الباطل، أو أنه حذف أداة استفهام الإنكار. والقرآن يبين بطلان الأول، وصحة الثاني: أما بطلان الأول، فالله تعالى نفى كون الشرك الماضي عن إبراهيم في قوله: ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ آل عمران: ٦٧ في عدة آيات، ونَفْي الكون الماضي يستغرق جميع الزمن الماضي، فثبت أنه لم يتقدم عليه شرك يوماً ما.

وأما كونه جازماً موقناً بعدم ربوبية غير الله، فقد دل عليه ترتيب قول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ﴾ إلى آخره "بالفاء" على قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ الأنعام: ٧٥، دل على أنه قال ذلك موقناً مناظراً، ومحاجاً لهم، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ... ﴾ الآية [الأنعام: ٨٢]، وقوله: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ الأنعام: ٨٣).[٢٣]

وكلام الشنقيطي هنا يؤكد أن ما جاء على لسان إبراهيم يدل على أنه قال ذلك موقناً مناظراً، ومحاجاً لهم، وأن العدد من الآيات القرآنية تنفي الشرك عن إبراهيم ماضيا ومستقبلا.

وقد ساق الشهرستاني ـ وهو الخبير بوضع أصحاب الملل والأهواء والنحل، وما يحصل منها من معتقدات باطلة، ومخالفات زائغة ـ ما كان عليه الصابئة، والمجوس، والحنفاء من: معتقدات، ومراسيم، وطقوس، وأشخاص يعبدونها، وهياكل، وجواهر، ونجوم، وأوثان يطلبون منافعها. نبه إلى أن الله بعث إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ في زمن كان قومه عباد أوثان فقام ـ عليه الصلاة والسلام ـ بمناظرات لأصحاب هذه المعبودات، وكان أبوه آزر ـ أعلم القوم بالأصنام وصناعتها، وعبادها يشترونها منه، فجاءت أكثر الحجج وأقوى الإلزامات عليه.

ثم قال الشهرستاني: (دع هذا كله خلف قاف، وارجع بنا إلى ما هو شاف كاف، فإن الموافقة في العبارة على طريق الإلزام على الخصم من أبلغ الحجج، وأوضح المناهج، وعن هذا قال: ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ﴾ الأنعام: ٧٨ لاعتقاد القوم: أن الشمس ملك الفلك هو رب الأرباب الذي يقتبسون منه الأنوار ويقبلون منه الآثار، ﴿ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ الأنعام: ٧٨ – ٧٩.

قرر ـ يعني إبراهيم ـ مذهب الحنفاء، وأبطل مذاهب الصابئة، وبين أن الفطرة هي الحنيفية، وأن الطهارة فيها، وأن الشهادة بالتوحيد مقصورة عليها، وأن النجاة والخلاص متعلقة بها، وأن الشرائع والأحكام مشارع ومناهج إليها، وأن الأنبياء والرسل مبعوثون لتقريرها وتقديرها، وأن الفاتحة والخاتمة والمبدأ والكمال منوطة بتحصيلها وتحريرها، ذلك الدين القيم، والصراط المستقيم، والمنهج الواضح والمسلك اللائح.

قال الله تعالى لنبيه المصطفى ـ صلى الله عليه و سلم ـ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ

أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ الروم: ٣٠ - ٣٢.(٢٤)

وهذا الذي نبه إليه الشهرستاني، و ما جاء حكاية من إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ في موافقته قومه كان مناظرة لهم من باب استعمال النصفة مع الخصم، واستدراجه لتخفيف حدته، وليصغي إلى ما يلقيه إليه، مع علمه أنه مبطل.

وللشعراوي عبارة مختصرة سهلة قال فيها: فقوله ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ لا تخدش في وفائه الإيماني، ولا بد أن لها وجهاً، ونعلم أن القوم كانوا يعبدون الكواكب، ويريد إبراهيم أن يلفتهم إلى فساد هذه العقيدة.

فلو أن إبراهيم من أول الأمر قال لهم: يا كذابون، يا أهل الضلال، وظل يوجه لهم السباب لما اهتموا به ولا سمعوا له. لكن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ استخدم ما يسمى في الجدل بـ «مجاراة الخصم » ليستميل آذانهم، ويأخذ قلوبهم معه، وليعلموا أنه غير متحامل عليهم من أول الأمر، فيأخذ بأيديهم معه).(٢٥)

وهذا هو معنى الاستدراج، والغاية منه استمالة الخصم برفق وأناة وتؤدة حتى يبلغ النهاية من الإقناع والمجادلة.

وما أجمل كلام عماد الدين ابن كثير الدمشقي عند كلامه عن آيات سورة الأنعام؛ حين قال:

(وقد اختلف المفسرون في هذا المقام، هل هو مقام نظر أو مناظرة؟ فروى ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس(٢٦) ما يقتضي أنه مقام نظر، واختاره ابن جرير(٢٧) مستدلا بقوله: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ الأنعام: ٧٧.

وقال محمد بن إسحاق ـ: قال ذلك ـ يعني إبراهيم ـ حين خرج من السّرب الذي ولدته فيه أمه، حين تخوفت عليه النمرود بن كنعان، لما أنْ قد أخبر بوجود مولود يكون ذهاب ملكك على يديه، فأمر بقتل الغلمان عامئذٍ؛ فلما حملت أم إبراهيم به وحان وضعها، ذهبت به إلى سَرَبٍ ظاهر البلد، فولدت فيه إبراهيم وتركته هناك. وذكر أشياء من خوارق العادات، كما ذكرها غيره من المفسرين من السلف والخلف.(٢٨)

والحق أن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان في هذا المقام مناظرا لقومه، مبينا لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام، ـ بخلاف رأي الطبري الذي ذهب إلى أنه من النظر ـ فبيَّن في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية، التي هي على صورة الملائكة السماوية، ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم الذين هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه، وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته، ليكونوا شفعاء لهم عند الله في الرزق والنصر، وغير ذلك مما يحتاجون إليه.

وبيَّن في هذا المقام خطأهم، وضلالهم في عبادة الهياكل؛ وهي الكواكب السيارة السبعة المتحيرة، وهي: القمر، وعطارد، والزهرة، والشمس، والمريخ، والمشترى، وزحل، وأشدهن إضاءة وأشرقهن عندهم الشمس، ثم القمر، ثم الزهرة. فبين أولا أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية؛ لأنها مسخرة مقدرة بسير معين، لا تزيغ عنه يمينًا ولا شمالا ولا تملك لنفسها تصرفا، بل هي جرم من الأجرام خلقها الله منيرة، لما له في ذلك من الحكم العظيمة، وهي تطلع من المشرق، ثم تسير فيما بينه، وبين المغرب حتى تغيب عن الأبصار فيه، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال. ومثل هذه لا تصلح للإلهية، ثم انتقل إلى القمر. فبين فيه مثل ما بين في النجم.

ثم انتقل إلى الشمس كذلك. فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار، وتحقق ذلك بالدليل القاطع، ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ أي: أنا بريء من عبادتهن وموالاتهن، فإن كانت آلهة، فكيدوني بها جميعا ثم لا تنظرون، ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ أي: إنما أعبد خالق هذه الأشياء ومخترعها ومسخرها ومقدرها ومدبرها الذي بيده ملكوت كل شيء، وخالق كل شيء، وربه، ومليكه، وإلهه.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ الأعراف: ٥٤.

وكيف يجوز أن يكون إبراهيم ـ الخليل ـ ناظرا في هذا المقام، وهو الذي قال الله في حقه: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝٥١ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ الآيات الأنبياء: ٥١ - ٥٢.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝١٢٠ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝١٢١ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٢٢ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ النحل: ١٢٠ - ١٢٣. وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ الأنعام: ١٦١.

والناظر في آيات سورة [الأنعام: ٧٤ ـ ٨١] نظرة حصيفة واعية ومبصرة يهتدي إلى أن معنى المناظرة أقرب إلى جوهرها ومعانيها؛ ودليل ذلك هو الاستفهام الإنكاري الوارد في صدر الآيات ﴿أَتَتَّخِذُ﴾، والاستفهام الإنكاري كما هو مقرر عند علماء المعاني: (في أصل وضعه يتطلب جوابا يحتاج إلى تفكير يقع به هذا الجواب في موضعه، ولما كان المسئول يجيب بعد تفكير وروية؛ عن هذه الأسئلة بالنفي كان توجيه السؤل إليه حملا له على الإقرار بهذا النفي، وهو أفضل من النفي ابتداء).(٢٩)

ومقتضى كلام بدوي هذا أن الهمزة في الاستفهام الوارد في الآية السابقة خرجت عن أصل وضعها اللغوي (التصور والتصديق) إلى الإنكار. فهو استفهام يفيد موقفا هو للمتكلم من سامعه، يتمثل في أنه لا يقبل منه مضمون ذلك الاستفهام.

وهذ الموقف على درجات أقصاها الإنكار، أو التقريع، وأدناها العتاب، وما بينهما در جات تتلون وفق السياق.

وقد ثبت عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: "كل مولود يولد على الفطرة"(٣٠)

وعن عياض بن حمار المُجَاشعي أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: " ألا إن ربي أمرني... وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم. "(٣١).

وقال الله في كتابه العزيز: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ الروم: ٣٠، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ الأعراف: ١٧٢ ومعناه على أحد القولين، كقوله: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ الروم: ٣٠.

فإذا كان هذا في حق سائر الخليقة، فكيف يكون إبراهيم ـ الخليل ـ الذي جعله الله ﴿ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ النحل: ١٢٠ ناظرا في هذا المقام؟!

بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة، والسجية المستقيمة بعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بلا شك ولا ريب.

ومما يؤيد أنه كان في هذا المقام مناظرًا لقومه فيما كانوا فيه من الشرك لا ناظرا قوله تعالى: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ الأنعام: ٨٠ - ٨١[٣٢].

كما أن في هذه الآية دليلا آخر على المناظرة وهي تزخر بالاستفهام أربع مرات: الاستفهام بالهمزة، وكيف، وأي. واللافت للنظر أن الاستفهام بـ "أي" وهي تأتي للسؤال عما يميز أحد المتشاركين في أمر يعمهما.

وكلام ابن كثير قد جمع بين أقوال المفسرين والقصاص، وجزم بأن الحق مع إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ حيث بين أنه كان في هذا المقام مناظرا لقومه، مبينا لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام، وأثبت ذلك بالدلائل والبراهين، ليفحم الخصم، ويفل شوكته.

ومن خلال ما سبق يلاحظ من كلام المفسرين عن آيات سورة الأنعام أنها استعملت عددا من الأساليب في مناظرة إبراهيم ـ عليه السلام ـ لقومه ليقيم عليهم الحجة ليبطل بذلك معتقدهم[٣٣] منها:

١. المحاكاة بقوله ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ فكلام إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ هذا كان من باب الموافقة ظاهراً للقوم، حتى إذا أورد عليهم الدليل المبطل لقولهم كان قبولهم له أتم، وانتفاعهم باستماعه أكمل، أو يقال جاء على سبيل الفرض جريا على معتقد قومه؛ ليصغي إلى ما يلقيه إليه، مع علمه أنه مبطل. فحاكاهم ليصل بهم إلى نقض اعتقادهم.

٢. التهيئة جاء ذلك بقوله: ﴿قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ قصد به تنبيه قومه للنظر في معرفة الرب الحق وأنه واحد، وأن الكوكب والقمر كليهما لا يستحقان ذلك وفي هذا تهيئة لنفوس قومه لما عزم عليه من التصريح؛ بأن له ربا غير الكواكب.

٣. التعريض بقوله: ﴿قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ فعرَّض بقومه لأنهم ضالون، وهيأهم قبل المصارحة للعلم بأنهم ضالون؛ لأن قوله: ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ يدخل على نفوسهم الشك في معتقدهم أن يكونوا ضلالا؛ ولأجل هذا التعريض لم يقل: لأكونن ضالا، بل قال: ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ ليشير إلى أن في الناس قوما ضالين، يعني قومه.

٤. الكر وذلك بقوله: ﴿قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ كر عليهم بالإبطال إظهارا للإنصاف وطلب الحق. فكلام إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان من باب الموافقة ظاهراً للقوم، حتى إذا أورد عليهم الدليل المبطل لقولهم كان قبولهم له أتم، وانتفاعهم باستماعه أكمل.

٥. التوصل إلى المصارحة، فصرح بوقوع الضلال إذا لم يكن له رب يهديه بقوله: ﴿قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ فعرَّض بقومه لأنهم ضالون، وهيأهم قبل المصارحة للعلم بأنهم ضالون.

٦. التريث في الاستدلال، ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا﴾ لم يقل ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ وإنما تريث إلى أفول القمر فاستدل به على انتفاء الهيئة ولم ينفها عنه بمجرد رؤيته بازغا مع أن أفوله محقق بحسب المعتاد.

٧. الاستدلال على أساس المشاهدة، فقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا﴾ لأنه أراد أن يقيم الاستدلال على أساس المشاهدة على ما هو المعروف في العقول؛ لأن المشاهدة أقوى. ولأن الأفول ليس يتغير في ذات الكوكب؛ بل هو عرض للأبصار المشاهدة له، أما الكوكب فهو باق في فلكه ونظامه يغيب ويعود إلى الظهور.

٨. الترقي في الاستدلال، نلحظ أن إبراهيم جادل قومه، وأرخى لهم العنان، وسار معهم على معتقدهم فقد استدل بالكوكب أولا، ثم ترقى فاستدل بالقمر، ثم إلى الاستدلال بالشمس، حتى أوصلهم إلى الحقيقة؛ فترقى في النوبة الثالثة إلى التصريح بالبراءة منهم، والتقريع بأنهم على شرك حين تم قيام الحجة، وتبلج الحق، وبلغ من الظهور غاية المقصود. فقال الله تعالى حكاية عنه: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الأنعام: ٧٨ – ٧٩.

٩. الاستدلال بالأولى، والأحرى، وذلك بقوله: ﴿هَٰذَا أَكْبَرُ﴾ هذه الجملة جارية مجرى العلة لجملة ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ المقتضية نقض ربوبية الكوكب، والقمر، وحصر

الربوبية في الشمس، ونفيها عن الكوكب، والقمر، ولـذلك حـذف المفضـل عليـه لظهوره، أي هو أكبر منهما، يعني أن الأكبر الأكثر إضاءة؛ أولى باستحقاق الإلهية؛ ببيان أن الأكبر أحق بالربوبية من الأصغر.

١٠. الإقناع فقوله: ﴿ قَالَ يَـٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴾ فيه إقناع لهم بـأن لا يحـاولوا موافقته إياهم على ضلالهم؛ لأنه لما انتفى استحقاق الإلهية عـن أعظـم الكواكـب التي عبدوها فقد انتفى عما دونها بالأحرى.

١١. الإيقان، فالآيات فيها بيان لكيفية استدلاله ـ عليه الصلاة والسلام ـ ووصـوله إلى رتبة الإيقـان، ﴿ قَالَ يَـٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ الأنعـــــام: ٧٨ - ٧٩. ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾ الأنعام: ٧٥

المطلب الثالث: الاستدلال على إثبات أن القرآن الكريم وحي من عند الله:

١. قال الله جل جلاله: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ هُوَ فِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴾ فصلت: ٥٢ هذه الآية من سورة فصلت، وهي من أهم السور التي نوَّهَت بالقرآن الكريم، وأشادت به، وأشارت إلى عجز المشركين عن معارضته، وذكر هديه، وأنه معصوم من أن يتطرق إليه الباطل، وتأييده بما أنزل إلى الرسل من قبل الإسلام، وتلقي المشركين له بالإعراض وصم الآذان، وإبطال مطاعن المشركين فيه، وتذكيرهم بأن القرآن نزل بلغتهم، فلا عذر لهم في عدم انتفاعهم بهديه، وأشارت كذلك إلى زجر المشركين وتوبيخهم على كفرهم بخالق السماوات والأرض، مع بيان ما في خلقها من الدلائل على تفرده بالإلهية، وجاء الأمر فيها للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بدفع المشركين بالتي هي أحسن، وبالصبر

على جفوتهم، وتثبيته ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمؤمنين بتأييد الله إياهم بتنزل الملائكة بالوحي، وجاءت بالبشارة للمؤمنين، وختمت السورة بما يلفت لفت بدئها، حيث جاءت هذه الآية: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ متصلة بالآيات ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ فصلت: ٤١-٤٥ لإلزام الطاعنين والملحدين، وفيها حث على التأمل والتدبر، واستدراج لإقرار الخصم.

وقد ساق البقاعيُّ مناسبة الآية بما قبلها فقال: (ولما ذكر سبحانه من أحوالهم المندرجة في أحوال هذا النوع كله ما هو مكشوف بشاهد الوجود من أنه لا ثبات لهم ـ لا سيما ـ عند الشدائد إعلاماً بالعراقة في الجهل والعجز، دل على الأمرين معا بما لا يمكن عاقلاً دفعه من أنهم لا يجوزون الممكن فيعدون له ما يمتعه على تقدير وقوعه، فأمره ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يذكر ذلك إيذاناً بالإعراض عنهم دليلاً على تناهي الغضب: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ ﴾ أي أخبروني ﴿ إِن كَانَ ﴾ أي هذا القرآن الذي نصبتم لمغالبته ـ حتى بالإعراض عن السماع باللغو ـ حال قراءته من الصفير والتصفيق وغير ذلك، وليس ذلك منكم صادراً عن حجة قاطعة في أمره ـ بل أنتم ـ

معها على يقين؛ بل هو عن خفة وعدم تأمل منكم أنه ﴿مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ الذي له الإحاطة بجميع صفات الجلال والجمال فهو لا يغالب.

ولما كان الكفر به على هذا التقدير في غاية البعد، وكان مقصود السورة دائراً على العلم، نبه على ذلك بأداة التراخي مع الدلالة على أن ذلك ما كان منهم إلا بعد تأمل طويل، فكانوا معاندين حتى نزلوا بالصفير والتصفيق من أعلى رتب الكلام إلى أصوات الحيوانات العجم. فقال: ﴿ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ﴾ أي بعد إمعان النظر فيه والتحقق لأنه حق، فكنتم بذلك في شقاق هو في غاية البعد من الملاءمة لمن لم يزل يستعطفكم بجميل أفعاله، ويردكم بجليل أقواله وآمن به غيركم؛ لأنه من عند الله، ﴿مَنۡ أَضَلُّ﴾ منكم ـ هكذا كان الأصل ـ ولكنه قال: ﴿مِمَّنۡ هُوَ فِي شِقَاقِۢ﴾ أي لأولياء الله، ﴿بَعِيدٖ﴾ تنبيهاً على أنهم صاروا كذلك، وأن من صار كذلك فقد عرض نفسه لسطوات الله تعالى التي من واقعته هلك لا محالة، ومن أهدى ممن هو في إسلام قريب وهو الذي آمن لأنه سالم الله الذي من سالمه سالمه كل شيء، فنجا من كل خطر.

فالآية من الاحتباك: ذكر الكفر أولاً دليلاً على الإيمان ثانياً، والضلال ثانياً دليلاً على الهدى أولاً، وسِرُّه أن ذكر المضار أصدع للقلب فهو أنفع في الوعظ).(٣٤)

وكلام البقاعي عن مناسبة الآية ينبه فيه إلى أنها دلت على أن كفر الكافرين برب العالمين، وتكذيب المشركين بالقرآن الكريم كان بعد تأمل طويل منهم، وشقاق في غاية البعد، فنعت عليهم تعريض أنفسهم بالهلاك. كما أكدت أن من اهتدى، وآمن فقد سلم ونجا من كل خطر.

وقال صاحب الكشاف عند تفسيره لهذه الآية: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾أخبروني ﴿إِن كَانَ﴾ القرآن ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ يعني: أن ما أنتم عليه من إنكار القرآن وتكذيبه ليس بأمر صادر عن حجة قاطعة حصلتم منها على اليقين وثلج الصدور، وإنما هو قبل النظر واتباع الدليل أمر محتمل، يجوز أن يكون من عند الله، وأن لا يكون من عنده، وأنتم لم تنظروا، ولم تفحصوا، فما أنكرتم أن يكون حقاً وقد كفرتم به. فأخبروني من أضلّ منكم وأنتم أبعدتم الشوط في مشاقته ومناصبته، ولعله حق فأهلكتم أنفسكم؟ ! وقوله تعالى: ﴿مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾موضوع موضع منكم، بياناً لحالهم وصفتهم).(٣٥) وكلام الزمخشري عن معنى الآية يؤكد أن المتنكرين للقرآن المكذبين الكافرين به، وبأنه ليس من عند الله، كان موقفا سابقا للسماع، وخصومة متقدمة للنظر والتفحص، وأن هذا الصنيع منهم كان مجازفة وتجوزا، ومناصبة للعداء، وبعدا عن الإنصاف.

وقال ابن عاشور عند تفسيره للآية نفسها: (استئناف ابتدائيّ متصل بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ فصلت: ٤١ – ٤٥؛ فهذا انتقال إلى المجادلة في شأن القرآن رجع به إلى الغرض الأصلي من هذه السورة وهو بيان حقِّيَّة القرآن، وصدقه وصدق من جاء به.

وهذا استدعاء ليعملوا النظر في دلائل صدق القرآن مثل إعجازه واتساقه وتأييد بعضه بعضا وكونه مؤيِّدا للكتب قبله، وكون تلك الكتب مؤيِّدة له.

والمعنى: ما أنتم عليه من إنكار صدق القرآن ليس صادرا عن نظر وتمحيص يحصل اليقين، وإنما جازفتم به قبل النظر!! فلو تأملتم لاحتمل أن ينتج لكم التأمل أنه من عند الله، وأن لا يكون من عنده، فإذا فرض الاحتمال الأول، فقد أقحمتم أنفسكم في شقاق قويّ.

واقتصر فيه على ذكر الحالة المنطبقة على صفاتهم؛ تعريضا بأن ذلك هو الطرف الراجح في هذا الإجمال؛ كأنه يقول: كما أنكم قضيتم بأنه ليس من عند الله، وليس ذلك معلوما بالضرورة. فكذلك كونه من عند الله. فتعالوا فتأملوا في الدلائل، فهم لما أنكروا أن يكون من عند الله، وصدوا أنفسهم وعامتهم عن الاستماع إليه والتدبير فيه؛ فقد أعملوا شهوات أنفسهم وأهملوا الأخذ بالحيطة لهم؛ بأن يتدبروه حتى يكونوا على بينة من أمرهم في شأنه.

وهو إذا تدبروه لا يلبثون أن يعلموا صدقه، فاستدعاهم الله إلى النظر بطريق تجويز أن يكون من عند الله؛ فإنه إذا جاز ذلك وكانوا قد كفروا به دون تأمل؛ كانوا قد قضوا على أنفسهم بالضلال الشديد، وإذا كانوا كذلك فقد حقت عليهم كلمات الوعيد.

و ﴿ إِنّ ﴾ الشرطية شأنها أن تدخل على الشرط المشكوك فيه، فالإتيان بها إرخاء للعنان معهم لاستنزال طائر إنكارهم حتى يُقبلوا على التأمل في دلائل صدق القرآن.

ويشبه أن يكون المقصود بهذا الخطاب والتشكيك أولا دهماء المشركين؛ الذين لم ينظروا في دلالة القرآن، أو لم يطيلوا النظر ولم يبلغوا به حد الاستدلال.

وأما قادتهم وكبراؤهم وأهل العقول منهم فهم يعلمون أنه من عند الله، ولكنهم غلب عليهم حب الرئاسة على أنهم متفاوتون في هذا العلم؛ إلى أن يبلغ بعضهم إلى حد قريب من حالة الدهماء.

ولكن القرآن ألقى بينهم هذا التشكيك تغليبا ومراعاة لاختلاف درجات المعاندين، ومجاراة لهم ادعاءهم؛ أنهم لم يهتدوا نظرا لقولهم. ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ ﴾ فصلت: ٥.

و ﴿ ثُمَّ ﴾ في قوله ﴿ ثُمَّ كَفَرۡتُم ﴾ للتراخي الرتبي لأن الكفر بما هو من عند الله أمره أخطر من كون القرآن من عند الله.

و ﴿ مَنۡ ﴾ الأولى للاستفهام وهو مستعمل في معنى النفي، أي لا أضل ممن هو في شقاق بعيد إذا تحقق الشرط.

و ﴿ مَنۡ ﴾ الثانية موصولة وما صدقها المخاطبون بقوله ﴿ كَفَرۡتُم بِهِۦ ﴾ فعدل عن الإضمار إلى طريق الموصول لما تأذن به الصلة من تعليل أنهم أضل الضالين، بكونهم شديدي الشقاق، وذلك كناية عن كونهم أشد الخلق عقوبة لما هو معلوم من أن الضلال سبب للخسران.

والشقاق: العصيان. والمراد: عصيان أمر الله لظهور أن القرآن من عنده على هذا الفرض بيننا.

والبعيد: الواسع المسافة، واستعير هنا للتشديد في جنسه، ومناسبة هذه الاستعارة للضلال لأن الضلال أصله عدم الاهتداء إلى الطريق، وأن البعد مناسب للشقاق لأن المنشق قد فارق المنشق عنه فكان فراقه بعيدا لا رجاء معه للدنو، ـ كما ـ في قوله ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴾ البقرة: ١٧٦.[٣٦]

والكلام يتلخص في أن الخصوم قد قضوا وحكموا بأن القرآن ليس من عند الله، وليس ما قالوه معلوما بالضرورة، فتعالوا وتأملوا في الدلائل، فهم لما أنكروا أن يكون من عند الله وصدوا أنفسهم وعامتهم عن الاستماع إليه والتدبر فيه، فقد أعملوا شهوات أنفسهم، وأهملوا الأخذ بالحيطة لهم، بأن يتدبروه حتى يكونوا على بينة من أمرهم في شأنه، وهو إذا تدبروه لا يلبثون أن يعلموا صدقه، فاستدعاهم الله إلى النظر بطريق تجويز أن يكون من عند الله، فإنه إذا جاز ذلك وكانوا قد كفروا به دون تأمل؛ كانوا قد قضوا على أنفسهم بالضلال الشديد.

والإنصاف: وسيلة، والغاية منه تحفيز المخالف على إلطاف النظر وإجالة التدبر قصد الاعتراف وحمله على الإقرار بما لم يستقر عنده.

قال الآلوسي عند تفسيره للآية: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ تَحَمِلُ ... ﴾ إلخ، رجوع لإلزام الطاعنين والملحدين، وختم للسورة بما يلتفت لفت بدئها، وهو من الكلام المنصف، وفيه حث على التأمل واستدراج للإقرار؛ مع ما فيه من سحر البيان، وحديث الساعة وقع في البين تتميماً للوعيد وتنبيهاً على ما هم فيه من الضلال البعيد.

ومعنى ﴿ أَرَءَيْتُمْ ﴾أخبروني ﴿ إِن كَانَ ﴾ أي القرآن ﴿ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ ﴾ مع تعاضد موجبات الإيمان به، ﴿ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ ﴾ أي خلاف ﴿ بَعِيدٍ ﴾ غاية البعد عن الحق.

والمراد ممن هو في شقاق: المخاطبون، ووضع الظاهر موضع ضميرهم شرحاً لحالهم بالصلة، وتعليلاً لمزيد ضلالهم، وجملة ﴿ مَنْ أَضَلُّ تَحَمِلُ ... ﴾ سادَّةٌ مسدَّ مفعولَيْ {رأيتم} أو المفعول الأول محذوف: تقديره أرأيتم أنفسكم، والثاني هو جملة الاستفهام، وأياً ما كان فجواب الشرط محذوف، تقديره: مثلاً فمن أضل منكم،

وقيل: إن كان من عند الله ثم كفرتم به فأخبروني من أضل منكم، ولعله الأظهر).[٣٧]
والله أعلم.

وقد نبَّهت الآية بقوله: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ ﴾: أن الرؤية سبب للإخبار، ﴿ إِن كَانَ ﴾ أي: القرآن ﴿ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ ﴾ من غير نظر واتباع دليل، مع تعاضد موجبات الإيمان به، فقد بعدتم وجانبتم الصواب.

و نبهت ـ كذلك ـ إلى أن: ﴿ مَنۡ ﴾ استفهامية في قوله: ﴿ أَضَلُّ مِمَّنۡ هُوَ فِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴾ أي: من أضل منكم، فوضع الموصول موضع الضمير شرحا لحالهم، وتعليلا لمزيد ضلالهم وخلافهم؛ بأنه لكونهم في شقاق بعيد.

فان من كفر بما نزل من عند الله بأن قال أساطير الأولين ونحوه، فقد كان مشاقا لله أي: معاديا ومخالفا له خلافا بعيدا عن الوفاق، ومعاداة بعيدة عن الموالاة، ولا شك أن من كان هكذا فهو في غاية الضلال.

وفي الآية إشارة ـ أيضا ـ إلى أن كل بلاء وعناء، ونعمة ورحمة، ومضرة ومسرة ينزل بالعبد فهو من عند الله. فإن استقبله بالتسليم والرضى؛ صابرا شاكرا للمولى في الشدة والرخاء، والسراء والضراء، فهو من المهتدين المقربين، وإن استقبله بالكفر والجزع بالخذلان، فهو من الأشقياء المبعدين المضلين.

٢. قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا ﴾ مريم: ٧٣.

لفظ: "أيٌّ" الاستفهامية في الآية جاءت للتمييز بين الكافرين والمؤمنين، في أمر يعمهما، وهو الجنة، والكلام المنصف ورد هنا في سياق زعم المشركين بأحقيتهم بالمقام

الأسنى، والأصل أن يكون من المؤمنين الذين هم أولى بهذه المكانة السنية والرتبة العلية. فجاء أسلوب الآية على خلاف الأصل.

وقد ساق صاحب غرائب القرآن هذه الآية على أن فيها أسلوب الكلام المنصف على زعم المشركين فقال: قوله: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ يعني المؤمنين بالآيات والجاحدين لها من الكلام المنصف على زعمهم. والمقصود نحن أوفر حظاً على ما يظهر منا في أحوال قيامنا وقعودنا، وحسن الحال في الدنيا ظاهر على الفضل والرفعة، وضده أمارة على النقص والضعة؛ فأجابهم الله تعالى بقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ أي كثيراً من المرات أهلكنا قبلهم أهل عصر).[٣٨]

والمعنى: أنهم إذا سمعوا الآيات وهم جهلة لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، وذلك مبلغهم من العلم؛ قالوا: أيّ الفريقين من المؤمنين بالآيات والجاحدين لها أوفر حظاً من الدنيا؛ حتى يجعل ذلك عياراً على الفضل والنقص، والرفعة والضعة؟ وهذا دليل في غاية الفساد، وهو من باب قلب الحقائق، وإلا فكثرة الأموال والأولاد، وحسن المنظر، كثيرا ما يكون سببا لهلاك صاحبه، وشقائه، وشره، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ مريم: ٧٤.

أي: متاعا، من أوان وفرش، وبيوت، وزخارف، وأحسن رئيا، أي: أحسن مرأى ومنظرا، من غضارة العيش، وسرور اللذات، وحسن الصور.

فإذا كان هؤلاء المهلكون أحسن منهم أثاثا ورئيا، ولم يمنعهم ذلك من حلول العقاب بهم، فكيف يكون هؤلاء، وهم أقل منهم وأذل؛ معتصمين من العذاب؟.[٣٩] وفي الآية من التهديد والوعيد ما لا يخفى.

والاستدلال بهذه الآية على هذا الأسلوب ـ على زعم المشركين ـ استدلال مقلوب؛ لأنه استدلال على مكاثرة محقق هلاكها من الفريقين.

وخلاصة الكلام عن موضوع الوحي: أن الآيتين اللتين ورد ذكرهما في موضوع مجادلة المكذبين بالوحي تضمنتا أساليب متعددة، ومتنوعة تتعلق بالكلام المنصف [٤٠] جاءت على النحو الآتي:

١. في الآيات انتقال إلى المجادلة، في شأن القرآن رجع به إلى الغرض الأصلي من سورة فصلت وهو بيان حقِّيَّة القرآن، وصدقه وصدق من جاء به. فاستدعاهم الله إلى النظر بطريق تجويز أن يكون من عند الله؛ فإنه إذا جاز ذلك وكانوا قد كفروا به دون تأمل؛ كانوا قد قضوا على أنفسهم بالضلال الشديد، وإذا كانوا كذلك فقد حقت عليهم كلمات الوعيد. وهذا استدعاء ليعملوا النظر في دلائل صدق القرآن مثل إعجازه واتساقه وتأييد بعضه بعضا.

٢. الحث على التأمل والتدبر؛ فقوله: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ ﴾ أي أخبروني ﴿ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ ﴾ أي هذا القرآن، لإلزام الطاعنين والملحدين لإقرارهم بالحجة أنه من عند الله، وهو استدراج: وهو من الكلام المنصف.

٣. الخصومة المتقدمة عن النظر والفحص، أي: إن ما أنتم عليه من إنكار القرآن وتكذيبه ليس بأمر صادر عن حجة قاطعة حصلتم منها على اليقين وثلج الصدور، وإنما هي خصومة متقدمة على النظر والفحص.

٤. إرخاء للعنان، فـ ﴿ إِن ﴾ الشرطية شأنها أن تدخل على الشرط المشكوك فيه، والإتيان بها إرخاء للعنان مع المنكرين لاستنزال طائر إنكارهم حتى يُقبلوا على التأمل في دلائل صدق القرآن.

٥. المجازفة والمجاوزة، فالمتنكرين للقرآن وقولهم بأنه ليس من عند الله، كان موقفا سابقا للسماع، وأن هذا الصنيع منهم كان مجازفة وتجوزا، ومناصبة للعداء، وبعدا عن الإنصاف.

٦. الكلام المنصف في قوله: ﴿ أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ جاء في سياق زعم المشركين بأحقيتهم بالمقام الأسنى، والأصل أن يكون من المؤمنين الذين هم أولى بهذه المكانة السنية والرتبة العلية. فجاء أسلوب الآية على خلاف الأصل، مسايرة لزعم المنكرين.

المطلب الرابع: الاستدلال على إثبات النبوة وصدق الأنبياء:

النموذج الأول: إثبات نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصدقه:

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ الإسراء: ٩٦.

قال ابن كثير: (يقول تعالى مرشدًا نبيه إلى الحجة على قومه، في صدق ما جاءهم به: إنه شاهد عليّ وعليكم، عالم بما جئتكم به، فلو كنت كاذبًا عليه انتقم مني أشد الانتقام، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴾ الحاقة: ٤٤ - ٤٦. وقوله: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ أي: عليم بهم بمن يستحق الإنعام والإحسان والهداية، ممن يستحق الشقاء والإضلال والإزاغة).(٤١)

وقال ابن عاشور: (بعد أن خص الله محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتلقين الحجة القاطعة للضلالة أردف ذلك بتلقينه ـ أيضا ـ ما لقنه الرسل السابقين من تفويض الأمر إلى الله وتحكيمه في أعدائه، فأمره بـ ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ ﴾ تسلية له

وتثبيتا لنفسه وتعهدا له بالفصل بينه وبينهم كما قال نوح وهود ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ المؤمنون: ٢٦. وغيرهما من الرسل قال قريبا من ذلك. وفي هذا رد لمجموع مقترحاتهم المتقدمة على وجه الإجمال).[٤٢]

وهي من أسلوب التهديد والوعيد والمتاركة.

قال الله تعالى: ﴿ قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴾ طه: ١٣٥.

الخطاب في الآية لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الكافرين: كل واحد منا، ومنكم متربص بالآخر، ومنتظر لما يؤول إليه أمر صاحبه، وما دام الأمر كذلك فانتظروا ما يؤول إليه حالنا، وحالكم، ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ ﴾ بعد زمن قريب. ﴿مَنۡ﴾ هم أصحاب الطريق الواضح المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، ﴿وَمَنِ﴾ الذين تجنب الضلالة، و ﴿ٱهۡتَدَىٰ﴾ بسلوكه إليه، أنا، أم أنتم؟ إلى ما يسعدهم في دينهم، وفي دنياهم، وفى آخرتهم، فإن صاحب الصراط المستقيم هو الفائز الراشد، الناجي المفلح، ومن حاد عنه خاسر خائب معذب. وقد عُلم أن الرسول هو الذي بهذه الحالة، وأعداؤه بخلافه، وهو أسلوب فيه تحدٍ.

قال ابن جرير الطبري: (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ: ﴿ قُلۡ﴾ يا محمد: كلكم أيها المشركون بالله متربص يقول: منتظر لمن يكون الفلاح، وإلى ما يئول أمري وأمركم متوقف ينتظر دوائر الزمان؛ فتربصوا يقول: فترقبوا وانتظروا، فستعلمون من أهل الطريق المستقيم المعتدل الذي لا اعوجاج فيه إذا جاء أمر الله وقامت القيامة، أنحن أم أنتم؟ ومن اهتدى يقول: وستعلمون حينئذ من المهتدي الذي هو على سنن الطريق القاصد غير الجائر عن قصده منا ومنكم).[٤٣]

قال الرازي: (ثم إنه سبحانه ختم السورة بضرب من الوعيد فقال: ﴿ قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ ﴾ أي كل منا ومنكم منتظر عاقبة أمره وهذا الانتظار يحتمل أن يكون قبل الموت، إما بسبب الأمر بالجهاد أو بسبب ظهور الدولة والقوة.

ويحتمل أن يكون بالموت فإن كل واحد من الخصمين ينتظر موت صاحبه.

ويحتمل أن يكون بعد الموت وهو ظهور أمر الثواب والعقاب، فإنه يتميز في الآخرة المحق من المبطل بما يظهر على المحق من أنواع كرامة الله تعالى، وعلى المبطل من أنواع إهانته.

﴿ فَسَتَعۡلَمُونَ ﴾ عند ذلك ﴿ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴾ إليه وليس هو بمعنى الشك والترديد، بل هو على سبيل التهديد والزجر للكفار. والله أعلم).(٤٤)

و يؤيده قول البقاعي: (ولما علم بهذا أن إيمانهم كالممتنع، وجدالهم لا ينقطع، بل إن جاءهم الهدى طعنوا فيه، وإن عذبوا قبله تظلموا، كان كأنه قيل: فما الذي أفعل معهم؟ فقال: ﴿ قُلۡ كُلّٞ ﴾ أي مني، ومنكم ﴿ مُّتَرَبِّصٞ ﴾ أي منتظر حسن عاقبة أمره، ودوائر الزمان على عدوه. ﴿ فَتَرَبَّصُواْۖ ﴾ فإنكم كالبهائم ليس لكم تأمل، ولا تجوزون الجائز إلا عند وقوعه.

﴿ فَسَتَعۡلَمُونَ ﴾ أي: عما قريب بوعد لا خلف فيه عند كشف الغطاء. ﴿ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ﴾ أي: الطريق الواضح الواسع ﴿ ٱلسَّوِيِّ ﴾ أي: الذي لا عوج فيه ولا نتو، فهو من شأنه أن يوصل إلى المقاصد.

ولما كان صاحب الشيء قد لا يكون عالماً بالشيء ولا عاملاً بما يعلم منه، قال: ﴿ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴾ أي من الضلالة فحصل على جميع ما ينفعه، واجتنب جميع ما يضره،

نحن أم أنتم؟ ولقد علموا يقيناً ذلك يوم فتح مكة المشرفة، واشتد اغتباطهم بالإسلام، ودخلوا رغبة في الحلم والكرم، ورهبة من السيف والنقم، وكانوا بعد ذلك يعجبون من توقفهم عنه ونفرتهم منه، وهذا معناه أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن اتبعه هم السعداء الأغنياء الراضون في الدنيا والآخرة، وهو عين قوله تعالى: ﴿ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴾ طه: ٢ فقد انطبق الآخر على الأول، ودل على أن العظيم يعامل بالحلم فلا يعجل).(٤٥)

و أكد ابن كثير (٤٦) أن هذه الآية كقول الله تعالى ﴿ وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ الفرقان: ٤٢. قال أبو السعود عند تفسيره لهذه الآية: ﴿ وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾ جوابٌ من جهته تعالى لآخرِ كلامِهم، وردٌّ لما ينبئ عنه من نسبته ـ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ـ إلى الضَّلالِ في ضمن الإضلال.

أي سوف يعلمونَ البتةَ وإنْ تراخى ﴿ حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ ﴾ الذي يستوجبُه كفرُهم وعنادُهم ﴿ مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ وفيه ما لا يخفى من الوعيدِ والتَّنبيهِ على أنَّه تعالى لا يُهملهم وإنْ أمهلهم).(٤٧)

قال ابن كثير: (إن آية سورة طه كقول الله تعالى: ﴿ سَيَعۡلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ ﴾ القمر: ٢٦.(٤٨)

قال أبو السعود عند تفسيره لهذه الآية: (حكايةٌ لما قالَهُ تعالَى لصالحٍ ـ عليهِ السَّلامُ ـ وعداً لهُ ووعيداً لقومِه، والسينُ لتقريبِ مضمونِ الجملةِ وتأكيدِه والمرادُ بالغدِ وقتُ نزولِ العذابِ أي سيعلمونَ البتةَ عن قريبٍ من الكذابُ الأشرُ الذي حملَهُ أشرُه وبطرُه على الترفعِ أصالحٌ هو أم مَنْ كذبَهُ. وقُرِئَ ستعلمونَ، على الالتفاتِ لتشديدِ التوبيخِ، أو على حكايةِ ما أجابَهُم به صالحٌ).(٤٩)

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ العنكبوت: ٥٢ قال أبو السعود عند تفسيره للآية: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ﴾ بما صدرَ عنِّي وعنكُم ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي من الأُمورِ التي من جُمْلتِها شأنِي وشأْنكم فهو تقريرٌ لما قبلَه من كفايتِه تعالى شَهيداً.

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ ﴾ وهو ما يُعبد من دُونِ الله تعالَى ﴿ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ ﴾ مع تعاضُد موجباتِ الإيمانِ به ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ المغبُونون في صفقتِهم حيثُ اشترَوا الكفرَ بالإيمانِ بأنْ ضيَّعوا الفطرةَ الأصليَّةَ والأدلَّةَ السمعيَّةَ الموجبةَ للإيمانِ.

والآيةُ من قبيلِ المُجادلةِ بالتي هي أحسنُ، حيثُ لم يُصرِّحْ بنسبةِ الإيمانِ بالباطلِ، والكفرِ بالله والخسرانِ إليهم، بل ذُكر على منهاجِ الإبهامِ، كما في قولِه تعالى: ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ سبأ: ٢٤[٥٠]

وقال ابن عاشور عند تفسير قول الله تعالى: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

(بعد أن ألقمهم حجر الحجة الدامغة أمر بأن يجعل الله حكما بينه وبينهم لمَّا استمر تكذيبهم بعد الدلائل القاطعة. وهذا من الكلام المنصف المقصود منه استدراج المخاطب، و ﴿ كَفَىٰ بِاللَّهِ ﴾ بمعنى هو كاف لي في إظهار الحق؛ والباء مزيدة للتوكيد، وجملة ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ مقررة لمعنى الاكتفاء به شهيدا فهي تتنزل منها منزلة التوكيد.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ العنكبوت: ٥٢

بعد أن أنصفهم بقوله ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ﴾ استمر في الانتصاف بما لا يستطيعون إنكاره.

وهو أن الذين اعتقدوا الباطل وكفروا بالله هم الخاسرون في الحكومة والقضية الموكولة إلى الله تعالى؛ فهم إن تأملوا في إيمانهم بالله حق التأمل وجدوا أنفسهم غير مؤمنين بإلهيته؛ لأنهم أشركوا معه ما ليس حقيقا بالإلهية، فعلموا أنهم كفروا بالله.

فتعين أنهم آمنوا بالباطل فالكلام موجه كقوله ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ سبأ: ٢٤.(٥١)

وقول حسان في أبي سفيان بن حرب أيام جاهليته:

أتهجوه ولستَ له بكفءٍ ... فشرُّكما لخيركُما الفداء (٥٢)

قال الله تعالى: ﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ سبأ: ٢٥

هذه الآية جاءت بعد قول الله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ سبأ: ٢٤ إلا أن موضوع تلك الآية متعلق بإثبات الحق على الباطل، وسيأتي الكلام عنها، و موضوع هذه يتعلق في إثبات النبوة وصدق الأنبياء، فجاء الكلام عنها ههنا.

قال ابن عاشور: (أعيد الأمر بأن يقول لهم مقالا آخر إعادة لزيادة الاهتمام، واستدعاء لأسماء المخاطبين بالإصغاء إليه.

ولما كان هذا القول يتضمن بيانا للقول الذي قبله فصلت جملة الأمر بالقول عن أختها إذ لا يعطف البيان على المبين بحرف النسق، فإنه لما ردد أمر الفريقين بيَّن

أن يكون أحدهما على هدى، والآخر في ضلال، وكان الضلال يأتي بالإجرام، اتسع بالمحاجة فقيل لهم: إذا نحن أجرمنا فأنتم غير مؤاخذين بجرمنا، وإذا عملتم عملا فنحن غير مؤاخذين به، أي أن كل فريق مؤاخذ وحده بعمله فالأجدى بكلا الفريقين أن ينظر كل في أعماله وأعمال ضده ليعلم أي الفريقين أحق بالفوز والنجاة عند الله.

و ـ أيضا ـ فصلت لتكون هذه الجملة مستقلة بنفسها ليخصها السامع بالتأمل في مدلولها فيجوز أن تعتبر استئنافا ابتدائيا، وهي مع ذلك اعتراض بُيِّن أثناء الاحتجاج. فمعنى ﴿لَّا تُسْـَٔلُونَ﴾، ﴿وَلَا نُسْـَٔلُ﴾ أن كل فريق له خويصيَّته.

والسؤال: كناية عن أثره وهو الثواب على العمل الصالح، والجزاء على الإجرام بمثله؛ كما هو في قول كعب بن زهير:

وقيل إنك منسوب ومسؤول

أراد ومؤاخَذ بما سبق منك لقوله قبله:

لذاك أَهيَب عندي إذ أُكَلِّمُه(٥٣)

وإسناد الإجرام إلى جانب المتكلم ومن معه مبني على زعم المخاطبين، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ المطففين: ٣٢ كان المشركون يؤنّبون المؤمنين بأنهم خاطئون في تجنب عبادة أصنام قومهم.

وهذه نكتة صوغه في صيغة الماضي لأنه متحقق على زعم المشركين. وصيغ ما يعمل المشركون في صيغة المضارع لأنهم ينتظرون منهم عملا تعريضا بأنهم يأتون عملا غير ما عملوه، أي يؤمنون بالله بعد كفرهم).(٥٤)

وقال الآلوسي: (هذا أبلغ في الإنصاف حيث عبر عن الهفوات التي لا يخلو عنها مؤمن بما يعبر به عن العظائم وأسند إلى النفس وعن العظائم من الكفر ونحوه بما

يعبر به عن الهفوات وأسند للمخاطبين وزيادة على ذلك أنه ذكر الإجرام المنسوب إلى النفس بصيغة الماضي الدالة على التحقق وعن العمل المنسوب إلى الخصم بصيغة المضارع التي لا تدل على ذلك، وذكر أن في الآية تعريضاً وأنه لا يضر بما ذكر، وزعم بعضهم أنها من باب المتاركة وأنها منسوخة بآية السيف).(٥٥)

قال الله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴾ الطور: ٣٠ – ٣١.

جاء تفسير الآية عند صاحب الكشاف قوله: (ننتظر به نوائب الزمان فيهلك كما هلك من قبله من الشعراء: زهير والنابغة ﴿مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أتربص هلاككم كما تتربصون هلاكي ﴿أَحْلَٰمُهُم﴾ عقولهم وألبابهم. ومنه قولهم: أحلام عاد.

والمعنى: أتأمرهم أحلامهم بهذا التناقض في القول، وهو قولهم: كاهن وشاعر، مع قولهم مجنون.

وكانت قريش يدعون أهل الأحلام والنهى ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ مجاوزون الحدّ في العناد مع ظهور الحق لهم).(٥٦)

قال الله تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ العلق: ٩ – ١٤ قال القاسمي عند تفسيره لهذه الآيات: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴾ (أي: يمنعه عن الصلاة. وعبر بالنهي إشارة إلى عدم اقتداره على غير ذلك، قال ابن عطية: ـ لم يختلف المفسرون في أن الناهي أبو جهل، والعبد المصلي النبيُّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ (٥٧) يؤكد هذا حديث ابن عباس: قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن على عنقه، فبلغ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: "لو فعله لأخذته الملائكة).(٥٨)

وفي الآية تقبيح وتشنيع لحال ذاك الكافر، وتعجيب منها وإيذان بأنها من الشناعة والغرابة بحيث يجب أن يراها كل من يتأتى منه الرؤية، ويقضي منها العجب.

ولفظ العبد وتنكيره، لتفخيمه ـ عليه الصلاة والسلام ـ واستعظام النهي، وتأكيد التعجب منه.

وقيل: إنه من إرخاء العنان في الكلام المنصف، إذ قال: ﴿يَنْهَىٰ﴾ ولم يقل: يؤذي، و﴿عَبْدًا﴾ دون: نبياً، والرؤية هاهنا: بصرية، وفيما بعدها: قلبية. معناه: أخبرني.

فإن الرؤية لما كانت سبباً للإخبار عن المرئي، أجرى الاستفهام عنها مجرى الاستخبار عن متعلقها.

وكلمة ﴿أَرَءَيْتَ﴾ صارت تستعمل في معنى أخبرني، على أنها لا يقصد بها في مثل هذه الآية الاستخبار الحقيقيّ، ولكن يقصد بها إنكار المستخبر عنها وتقبيحها.

فكأنه يقول: ما أسخف عقل هذا الذي يطغى به الكبر فينهى عبداً من عبيد الله عن صلاته، خصوصاً وهو في حالة أدائها.

وقوله: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾ أي: أرأيت إن كان ذلك الناهي على طريقة سديدة فيما ينهى عنه من عبادة الله، أو كان آمراً بالمعروف والتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان، كما يعتقد؟

وجواب الشرط محذوف دل عليه ما بعده، أي: ألم يعلم بأن الله يرى. وعليه فالضمائر كلها لـ: ﴿ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾ وجوز عود الضمير المستتر في ﴿كَانَ﴾ للعبد المصلي. وكذا في ﴿أَمَرَ﴾ أي: أرأيت الذي ينهى عبداً يصلي؟ والمنهيّ على الهدى آمر بالتقوى. والناهي مكذب متول، فما أعجب من هذا !)[٥٩]

النموذج الثاني: إثبات نبوة نبي الله نوح ـ عليه السلام ـ وصدقه:

قال الله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ هود: ٢٨ هذه الآية جاءت في سياق الحديث عن تكذيب قوم نبي الله نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ له، و طعنهم في رسالته، وأنه لا مزية له ولا فضل، وهي حجج لا ترقى لأن تكون صادرة عن ترو وتأمل منهم، إلا أن نوحا ـ عليه الصلاة والسلام ـ قام بمراجعة قومه ومناداتهم باستحضار لفظ ـ يا قوم ـ لطلب إقبال عقولهم ليعوا كلامه، وليقطع آراءهم الركيكة، والآيات في هذا المقام هي قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ هود: ٢٥ – ٢٨

ولفهم معنى الآيات وربط بعضها ببعض نسوق تفسير عماد الدين ابن كثير لها، وبيان موقف قوم نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ منه ومن دعوته وكيف كان رد نوح لهم، فقال عند قول الله تعالى: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ ... ﴾ والملأ هم: السادة والكبراء من الكافرين منهم.

﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ أي: لست بملَكٍ، ولكنك بشر، فكيف أوحي إليك من دوننا؟ ثم ما نراك اتبعك إلا أراذلنا كالباعة والحاكة وأشباههم، ولم يتبعك الأشراف ولا الرؤساء منا، ثم هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن عن تَرَوٍّ منهم، ولا فكرة

ولا نظر؛ بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك فاتبعوك؛ ولهذا قال: ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ ﴾ أي: في أول بادئ الرأي. ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ يقولون: ما رأينا لكم علينا فضيلة في خَلْق ولا خُلُق، ولا رزق ولا حال، لَمَّا دخلتم في دينكم هذا، ﴿ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ أي: فيما تَدَّعونه لكم من البر والصلاح والعبادة، والسعادة في الدار الآخرة إذا صرتم إليها.

هذا اعتراض الكافرين على نوح ـ عليه السلام ـ وأتباعه، وذلك دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم، فإنه ليس بعار على الحق رَذَالة من اتبعه، فإن الحق في نفسه صحيح، وسواء اتبعه الأشراف أو الأراذل، بل الحق الذي لا شك فيه، أن أتباع الحق هم الأشراف، ولو كانوا فقراء، والذين يأبونه هم الأراذل، ولو كانوا أغنياء. ثم الواقع غالبا أن ما يتبع الحق ضعفاء الناس، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته، كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ الزخرف: ٢٣ ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان صخر بن حرب عن صفات النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال له فيما قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت بل ضعفاؤهم. قال أيزيدون أم ينقصون؟ قلت بل يزيدون. - إلى أن قال هرقل -: وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل.(٦٠)

وقولهم ﴿ بَادِيَ ٱلرَّأْيِ ﴾ ليس بمذمة ولا عيب؛ لأن الحق إذا وضح لا يبقى للتروي ولا للفكر مجال.

بل لا بد من اتباع الحق والحالة هذه لكل ذي زكاء وذكاء ولا يفكر وينزوي هاهنا إلا عَييٌّ أو غبيٌّ. والرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ إنما جاءوا بأمر جلي واضح.

وقد جاء في الحديث أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: "ما دعوت أحدًا إلى الإسلام إلا كانت له كَبْوَة، غير أبي بكر، فإنه لم يَتَلَعْثَم"(٦١) أي: ما تردد ولا تروَّى؛ لأنه رأى أمرا جليا عظيما واضحا، فبادر إليه وسارع.

وقولهم: ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ هم لا يرون ذلك؛ لأنهم عُمْي عن الحق، لا يسمعون ولا يبصرون: بل هم في ريبهم يترددون، في ظلمات الجهل يعمهون، وهم الأفاكون الكاذبون، الأقلون الأرذلون، وفي الآخرة هم الأخسرون.

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ هود: ٢٨ يقول تعالى مخبرًا عن نوح ما ردَّ على قومه في ذلك: ﴿ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي ﴾ أي: على يقين وأمر جلي، ونبوة صادقة، وهي الرحمة العظيمة من الله به وبهم، ﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ أي: خفيت عليكم، فلم تهتدوا إليها، ولا عرفتم قدرها، بل بادرتم إلى تكذيبها وردها، ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا ﴾ أي: نَغْضبكم بقبولها وأنتم لها كارهون).(٦٢)

وقال أبو السعود: (ومحصولُ الجوابِ أخبروني إن كنتُ على حجة ظاهرةِ الدِلالة على صِحّة دعواي إلا أنها خافيةٌ عليكم غيرُ مُسلَّمةٍ عندكم، أيمكنُنا أن نكرِهَكم على قَبولها، وأنتم معرضون عنها غيرَ متدبِّرين فيها. أي لا يكون ذلك. وظاهرُه مُشعِرٌ بصدوره عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بطريق إظهارِ اليأسِ عن إلزامهم القعودَ عن مُحاجَّتهم كقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ أَنَا۠ ... ﴾ الآيات هود:

٣٤. لكنه محمولٌ على أن مرادَه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ردُّهم عن الإعراض عنها وحثُّهم على التدبّر فيها بصرف الإنكارِ إلى الإلزام، حالَ كراهتِهم لها لا إلى الإلزام مطلقاً. ويجوز أن يكون المرادُ بالبينة دليلَ العقلِ الذي هو ملاكُ الفضل، وبحسبه يمتاز أفرادُ البشرِ بعضُها من بعض وبه يناط الكرامةُ عند الله ـ عز وجل ـ والاحتباء للرسالة، وبالكون عليها التمسكُ به والثباتُ عليه وبخفائها على الكفرة على أن الضميرَ للبينة عدمُ إدراكِهم لكونه ـ عليه الصلاة والسلام ـ عليها.

وبالرحمة: النبوةُ التي أنكروا اختصاصَه ـ عليه السلام ـ بها بين ظَهرانيهم، والمعنى: أنكم زعمتم أن عهدَ النبوةِ لا يناله إلا من له فضيلةٌ على سائر الناسِ مستتبِعةٌ لاختصاصه به دونهم، أخبروني إن امتزتُ عنكم بزيادة مزيةٍ وحيازةِ فضيلةٍ من ربي، وآتاني بحسبها نبوةً منه فخفِيَتْ عليكم تلك البينةُ ولم تُصيبوها ولم تنالوها، ولم تعلموا حيازتي لها، وكوني عليها إلى الآن حتى زعمتم أني مثلُكم وهي متحققةٌ في نفسها أنلزمكم قبولَ نبوتي التابعةِ لها، والحالُ أنكم كارهون لذلك؛ فيكون الاستفهامُ للحمل على الإقرار.

وهو الأنسبُ بمقام المُحاجّةِ، وحينئذٍ يكون كلامُه ـ عليه الصلاة والسلام ـ جواباً عن شُبَههم التي أدرجوها في خلال مقالِهم من كونه ـ عليه السلام ـ بشراً، قصارى أمره أن يكون مثلَهم من غير فضلٍ له عليهم وقطعاً لشأفة آرائِهم الركيكة).(٦٣)

وظاهر من كلام أبي السعود أن الكلام المنصف في سياق الاستفهام التقريري أنسب لمقام المناظرة، والإقناع والاستدراج.

وقال ابن عاشور: (فُصِلَت جملة: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ ﴾ عن التي قبلها على طريقة حكاية الأقوال في المحاورات كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ

فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾البقرة: ٣٠؛ فهذه لما وقعت مقابلا لكلام محكيّ يقال فصلت الجملة، تتاح مراجعته بالنداء لطلب إقبال أذهانهم لوعي كلامه، كما في نظيرها في سورة الأعراف، واختيار استحضارهم بعنوان قومه لاستنزال طائر نفورهم تذكيرا لهم بأنه منهم فلا يريد لهم إلا خيرا.

وإذ قد كان طعنهم في رسالته مدللا بأنهم ما رأوا له مزية وفضلا، وما رأوا أتباعه إلا ضعفاء قومهم، وإن ذلك علامة كذبه وضلال أتباعه، سلك نوح ـ عليه السلام ـ في مجادلتهم مسلك إجمال؛ لإبطال شبهتهم ثم مسلك تفصيل لرد أقوالهم، فأما مسلك الإجمال فسلك فيه مسلك القلب؛ بأنهم إن لم يروا فيه وفي أتباعه ما يحمل على التصديق برسالته، فكذلك هو لا يستطيع أن يحملهم على رؤية المعاني الدالة على صدقه، ولا يستطيع منع الذين آمنوا به من متابعته والاهتداء بالهدى الذي جاء به. فقوله: ﴿ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى ... ﴾ إلى آخره.

معناه: إن كنت ذا برهان واضح، ومتصفا برحمة الله بالرسالة بالهدى، فلم تظهر لكم الحجة، ولا دلائل الهدى، فهل ألزمكم أنا وأتباعي بها، أي: بالإذعان إليها، والتصديق بها إن أنتم تكرهون قبولها.

وهذا تعريض بأنهم لو تأملوا تأملا بريئا من الكراهية والعداوة لعلموا صدق دعوته).(٦٤)

النموذج الثالث: إثبات نبوة شعيب ـ عليه السلام ـ وصدقه:

قال الله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ هود: ٩٢ – ٩٣.

قال أبو السعود: ﴿ قَالَ ﴾ ـ عليه السلام ـ في جوابهم ﴿ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ فإن الاستهانةَ بمن لا يَتعزّز إلا به ـ عز وجل ـ استهانةٌ بجنابه العزيز وإنما أنكر عليهم أعزِّيَّةَ رهطِه منه ـ تعالى ـ مع أن ما أثبتوه هو مطلقُ عزةِ رهطِه لا أعزّيتُهم منه ـ عز وجل ـ مع الاشتراك في أصل العزةِ لتثنية التقريعِ وتكريرِ التوبيخِ حيث أنكر عليهم أولاً ترجيح جنب الرهطِ على جنبة الله تعالى حظاً من العزة أصلاً، ﴿ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ ﴾ بسبب عدم اعتدادِكم بمن لا يرِدُ ولا يصدُر إلا بأمره، ﴿ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّا ﴾

أي: شيئاً منبوذاً وراء الظهر منسياً لا يبالى به، منسوبٌ إلى الظهر، والكسر لتغيير النسب، كالأمسيّ في النسبة إلى الأمس.

﴿ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ من الأعمال السيئة التي من جملتها عدمُ مراعاتِكم جانبه، ﴿ مُحِيطٞ ﴾ لا يخفى عليه منها خافيةٌ، وإن جعلتموه منسياً فيجازيكم عليها.

ويحتمل أن يكون الإنكارُ للرد والتكذيب؛ فإنهم لما ادَّعَوا أنهم لا يكفّون عن رجمه ـ عليه السلام ـ لقوته وعزّته بل لمراعاة جانب رهطِه ردّ عليهم ذلك بأنكم ما قدَّرتم الله حقَّ قدرهِ العزيزِ، ولم تراعوا جنابَه القويَّ؛ فكيف تراعون جانبَ رهطي الأذلة؟

﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ ﴾ لما رأى ـ عليه السلام ـ إصرارَهم على الكفر، وأنهم لا يرعوون عما هم عليه من المعاصي، حتى اجترأوا على العظيمة التي هي الاستهانةُ به والعزيمةُ على رجمه لولا حُرمةُ رهطِه، قال لهم على طريقة التهديد: ﴿ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ

مَكَانَتِكُمْ ﴾ أي: على غاية تمكّنِكم واستطاعتِكم يقال: مكُن مكانةً إذا تمكّن أبلغَ التمكّن.

وإنما قاله ـ عليه السلام ـ رداً لما ادَّعَوا أنهم أقوياءُ قادرون على رجمه، وأنه ضعيفٌ فيما بينهم لا عزةَ له، أو على ناحيتكم وجِهَتكم التي أنتم عليها من قولهم: مكانٌ ومكانة كمقام ومقامة.

والمعنى: اثبُتوا على ما أنتم عليه من الكفر والمشاقّةِ لي، وسائرِ ما أنتم عليه مما لا خيرَ فيه، وابذُلوا جهدكم في مضارّتي وإيقافي؛ ما في نيتكم وإخراج ما في أمنيتكم من القوة إلى الفعل.

﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ على مكانتي حسبما يؤيدني الله، ويوفقني بأنواع التأييدِ والتوفيق ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ لما هدّدهم ـ عليه السلام ـ بقوله: اعمَلوا على مكانتكم إني عاملٌ كان مظِنّةَ أن يسألَ منهم سائلٌ فيقولَ: فماذا يكون بعد ذلك؟

فقيل: سوف تعلمون ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ وصَف العذابَ بالإخزاء تعريضاً بما أوعدوه ـ عليه السلام ـ به من الرجم فإنه مع كونه عذاباً؛ فيه خِزيٌ ظاهرٌ؛ حيث لا يكون إلا بجناية عظيمةٍ توجبه ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ﴾ عطفٌ على مَنْ يأتيه لا على أنه قسيمُه بل حيث أوعدوه بالرجم وكذبوه.

قيل: سوف تعلمون مَن المعذَّبُ ومن الكاذب، وفيه تعريضٌ بكذبهم في ادعائهم القوةَ والقُدرةَ على رجمه ـ عليه السلام ـ وفي نسبته إلى الضعف والهوانِ وفي ادعائهم الإبقاءَ عليه جانبِ الرهطِ).(٦٥)

وفي الآية من الكلام المنصف ما فيه، وبيانه أن الكلام المنصف ورد في بداية الآية ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ ... ﴾ في سياق الاستفهام الإنكاري، ويستفاد الوعيد والتهديد من الأمر في قوله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾ وقد خرج فعل الأمر عن دلالته الأصلية الذي هو: (طلب القيام بالفعل على وجه الاستعلاء مع الإلزام) إلى دلالة فرعية تستفاد من سياق الكلام، وقرائن الأحوال، والقرينة الدالة على الوعيد والتهديد التنغيم.

النموذج الرابع: نبوة موسى ـ عليه السلام ـ وصدقه:

قول الله تعالى: ﴿ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ غافر: ٤٤.

قال ابن كثير عند تفسيره للآية: (أي: سوف تعلمون صدق ما أمرتكم به ونهيتكم عنه، ونصحتكم ووضحت لكم، وتتذكرونه، وتندمون حيث لا ينفعكم الندم، ﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ أي: وأتوكل على الله وأستعينه، وأقاطعكم وأباعدكم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ أي: هو بصير بهم، فيهدي من يستحق الهداية، ويضل من يستحق الإضلال، وله الحجة البالغة، والحكمة التامة، والقدر النافذ).(٦٦)

وخلاصة الكلام عن موضوع إثبات النبوة وصدق الأنبياء:

أن الآيات التي ورد ذكرها في موضوع مجادلة المنكرين والمكذبين بنبوة الأنبياء وصدقهم، تضمنت طرقا وأساليب متعددة ومتنوعة من الكلام المنصف (٦٧) جاءت على النحو الآتي:

١. التهديد والزجر، فقوله: ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ طه: ١٣٥ أي فستعلمون حينئذ مَنْ المهتدي الذي هو على سنن الطريق القاصد؛ غير الجائر عن قصده، منا، ومنكم إليه، وليس هو بمعنى الشك والترديد، بل جاء على سبيل التهديد والزجر.

٢. المجادلة بالتي هي أحسن بقوله: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ﴾العنكبوت: ٥٢ فلم يُصرِّحْ بنسبةِ الإيمانِ بالباطلِ، والكفرِ بالله، والخسرانِ إليهم، بل ذُكر على منهاجِ الإبهامِ، للمجادلة بالتي هي أحسن.

٣. الكلام المنصف المقصود به الاستدراج يفهم من قول الله: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ العنكبوت: ٥٢ فألقمهم حجر الحجة الدامغة؛ أمر بأن يجعل الله حكما بينه، وبينهم؛ لَمَّا استمر تكذيبهم بعد الدلائل القاطعة. وهذا من الكلام المنصف المقصود منه استدراج المخاطب، واستمر في الانتصاف بما لا يستطيعون إنكاره.

٤. التوسع في الاحتجاج، يتضح ذلك من قول الله: ﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ سبأ: ٢٥ فقد اتسع بالمحاجة فقيل لهم: إذا نحن أجرمنا فأنتم غير مؤاخذين بجرمنا، وإذا عملتم عملا فنحن غير مؤاخذين به، أي أن كل فريق مؤاخذ وحده بعمله؛ فالأجدى بكلا الفريقين أن ينظر كل في أعماله، وأعمال ضده؛ ليعلم أي الفريقين أحق بالفوز والنجاة عند الله، وإسناد الإجرام إلى جانب المتكلم، ومن معه؛ مبني على زعم المخاطبين.

٥. التعريض، ففي قوله: ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴾ المطففين: ٣٢ كان المشركون يؤنّبون المؤمنين بأنهم خاطئون في تجنب عبادة أصنام قومهم. وصيغ ما

يعمل المشركون في صيغة المضارع بقوله] ﴿ وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ لأنهم ينتظرون منهم عملا تعريضا بأنهم يأتون عملا غير ما عملوه، أي يؤمنون بالله بعد كفرهم.

٦. التنبيه على التناقض في دعاويهم، وذلك بقول الله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴾ الطور: ٣٠ - ٣١ أي: أن عقولهم وألبابهم تأمرهم بهذا التناقض في القول، وهو قولهم: لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كاهن وشاعر، مع قولهم أنه مجنون، وهذا لا يستقيم؛ لتعارض أن يكون مجنون وشاعر في وقت واحد.

٧. إرخاء العنان، يتضح من قول الله: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴾ العلق: ٩ - ١٠ وهذا من إرخاء العنان في الكلام المنصف، حيث قال: ﴿ يَنْهَىٰ ﴾ ولم يقل: يؤذي، و ﴿ عَبْدًا ﴾ دون: نبياً، أي: أرأيت إن كان ذلك الناهي على طريقة سديدة فيما ينهى عنه من عبادة الله، أو كان آمراً بالمعروف، والتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان، كما يعتقد.

٨. الاستفهام الإنكاري، الوارد في كلمة ﴿ أَرَءَيْتَ ﴾ التي صارت تستعمل في معنى أخبرني، على أنها لا يقصد بها في مثل هذه الآية الاستخبار الحقيقيّ، ولكن يقصد بها إنكار المستخبر عنها وتقبيحها، فهي من الاستفهام الإنكاري.

٩. الحث على التدبر، بخطاب نبي الله نوح لقومه بلفظ "ياقوم": ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى ﴾ فيحتملُ أن مرادَه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ردُّهم عن الإعراض عنها، وحثُّهم على التدبّر فيها بصرف الإنكارِ إلى الإلزام؛ حالَ كراهتِهم لها لا إلى الإلزام مطلقاً.

١٠. أسلوب التهديد والتقريع والتوبيخ، جاء على لسان نبي الله شعيب ـ عليه السلام ـ بقوله لقومه: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ... ﴾ هود: ٩٣، الإنكارُ للرد والتكذيب فإنهم لما ادَّعَوا أنهم لا يكفّون عن رجمه ـ عليه السلام ـ لقوته وعزّتِه؛ بل لمراعاة جانب رهطِه؛ ردّ عليهم ذلك؛ بأنكم ما قدَّرتم الله حقَّ قدرِه العزيزِ، ولم تراعوا جنابَه القويَّ؛ فكيف تراعون جانبَ رهطي الأذلة؟ ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ ﴾ لما رأى ـ عليه السلام ـ إصرارَهم على الكفر، وأنهم لا يرعوون عما هم عليه من المعاصي؛ حتى اجترأوا على العظيمة التي هي الاستهانةُ به والعزيمةُ على رجمه لولا حُرمةُ رهطِه، قال لهم على طريقة التهديد.

١١. الاستفهام المحمول على الإقرار، فقوله: ﴿ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي ﴾ أي: أخبروني إن امتزتُ عنكم بزيادة مزيةٍ وحيازةِ فضيلةٍ من ربي، وآتاني بحسبها نبوَّةً منه فخفِيَتْ عليكم تلك البيِّنةُ ولم تُصيبوها ولم تنالوها، ولم تعلموا حيازتي لها، وكوني عليها إلى الآن؛ حتى زعمتم أني مثلُكم وهي متحققةٌ في نفسها؛ أنلزمكم قبولَ نُبُوَّتي التابعةِ لها، والحالُ أنكم كارهون لذلك؛ فيكون الاستفهامُ للحمل على الإقرار، وهو الأنسبُ بمقام المُحاجّةِ.

١٢. على طريقة حكاية الأقوال في المحاورات، فجملة: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ ﴾ فُصِلَت عن التي قبلها على طريقة حكاية الأقوال في المحاورات فأتيح له مراجعة قومه بالنداء؛ لطلب إقبال أذهانهم لوعي كلامه، واختيار استحضارهم بعنوان قومه؛ لاستنزال طائر نفورهم؛ تذكيرا لهم بأنه منهم فلا يريد لهم إلا خيرا.

١٣. الإجمال والتفصيل في رد الشبهة، أو بما يسمى باللف والنشر، وذلك بما جاء عن نبيِّ الله نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ حين أجمل بقوله: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ لإبطال شبهتهم، ثم سلك مسلك التفصيل لرد أقوالهم، فأما مسلك الإجمال فسلك فيه مسلك القلب؛ بأنهم إن لم يروا فيه وفي أتباعه ما يحمل على التصديق برسالته، فكذلك هو لا يستطيع أن يحملهم على رؤية المعاني الدالة على صدقه، ولا يستطيع منع الذين آمنوا به من متابعته والاهتداء بالهدى الذي جاء به.

١٤. استعمال التعريض، وذلك بقوله: ﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ أي: فهل ألزمكم أنا وأتباعي بها، وبالإذعان إليها، والتصديق بها إن أنتم تكرهون قبولها، وهذا تعريض بأنهم لو تأملوا تأملا بريئا من الكراهية والعداوة لعلموا صدق دعوته.

المطلب الخامس: الاستدلال على بيان إثبات الحق وغلبته على الباطل:

١. قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ سبأ: ٢٤، هذه الآية هي آية موضوع الاستدلال في بيان إثبات غلبة الحق على الباطل، وقد جاء قبلها قول الله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ۚ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا الْحَقَّ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ سبأ: ٢٢ ـ ٢٣.

وقد أورد البقاعي المناسبة بين الآيات فقال: (لما سلب عن شركائهم أن يملكوا شيئاً من الأكوان، وأثبت جميع الملك له وحده، أمر الله رسوله ـ صلى الله عليه وسلم

ـ بأن يقررهم بما يلزم منه ذلك فقال: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم﴾، ولما كان كل شيء من الرزق متوقفاً على الكونين، وكان في معرض الامتنان والتوبيخ جمع لئلا يدعى أن لشيء من العالم العلوي مدبراً غيره ـ سبحانه ـ فقال: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وقال: ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ بالإفراد لأنهم لا يعلمون غيرها.

ولما كان من المعلوم أنهم مقرّون بأن ذلك لله وحده كما تقدم التصريح به غير مرة، وكان من المحقق أن إقرارهم بذلك ملزم لهم الإخلاص في العبادة عند كل من له أدنى مسكة من عقله، أشار إلى ذلك بالإشارة بأمره ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالإجابة إلى أنهم كالمنكرين لهذا، لأن إقرارهم به لم ينفعهم.

ثم ما جاء في الآية انتقال من دمغ المشركين بضعف آلهتهم وانتفاء جدواها عليهم في الدنيا والآخرة إلى إلزامهم بطلان عبادتها بأنها لا تستحق العبادة؛ لأن مستحق العبادة هو الذي يرزق عباده، فإن العبادة شكر ولا يستحق الشكر إلا المنعم، وهذا احتجاج بالدليل النظري بأن الله هو الرزاق يستلزم انفراده بإلهيته؛ إذ لا يجوز أن ينفرد ببعض صفات الإلهية، ويشارك في بعض آخر، فإن الإلهية حقيقة لا تقبل التجزئة والتبعيض.(٦٨)

وما أجمل عبارة صاحب الكشاف إذ قال: (أمره بأن يقررهم بقوله: ﴿مَن يَرْزُقُكُم﴾ ثم أمره بأن يتولى الإجابة والإقرار عنهم بقوله: يرزقكم الله، وهذا هو الاستفهام التقريري بـ"مَنْ" التي يستفهم بها عن الجنس من ذوي العلم، ثم خرجت إلى التقرير، وهو معاني الاستفهام، ويراد به حمل المخاطب على الاعتراف والإقرار بما يعرفه ـ وذلك بالإشعار بأنهم مقرّون به بقلوبهم، إلاّ أنهم ربما أبوا أن يتكلموا به؛ لأن الذي تمكن في صدورهم من العناد وحب الشرك قد ألجم أفواههم عن النطق

بالحق مع علمهم بصحته، ولأنهم إن تفوهوا بأن الله رازقهم: لزمهم أن يقال لهم: فما لكم لا تعبدون من يرزقكم، وتؤثرون عليه من لا يقدر على الرزق، ألا ترى إلى قوله: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ يونس: ٣١ حتى قال: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ﴾ يونس: ٣١ ثم قال: ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾ يونس: ٣٢ فكأنهم كانوا يقرّون بألسنتهم مرّة، ومرّة كانوا يتلعثمون عناداً وضراراً وحذاراً من إلزام الحجة.

ونحوه قوله عزّ وجلّ: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ الرعد: ١٦ وأمره أن يقول لهم بعد الإلزام والإلجام الذي إن لم يزد على إقرارهم بألسنتهم لم يتقاصر عنه، ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ ومعناه: وإنّ أحد الفريقين من الذين يوحدون الرازق من السموات والأرض بالعبادة ومن الذين يشركون به الجماد الذي لا يوصف بالقدرة، لعلى أحد الأمرين من الهدى والضلال، وهذا من الكلام المنصف الذي كل من سمعه من موالٍ أو منافٍ قال لمن خوطب به: قد أنصفك صاحبك، وفي درجة بعد تقدمة ما قدم من التقرير البليغ: دلالة غير خفية على من هو من الفريقين على الهدى ومن هو في الضلال المبين، ولكن التعريض والتورية أنضل بالمجادل إلى الغرض، وأهجم به على الغلبة، مع قلة شغب الخصم، وفلّ شوكته بالهويناء.

ونحوه قول الرجل لصاحبه: علم الله الصادق مني ومنك، وإن أحدنا لكاذب. ومنه بيت حسان:

أتهجوه ولستَ له بكفءٍ فشرُّكُما لخيركُمَا الفداء

فإن قلت: كيف خولف بين حرفيّ الجرّ الداخلين على الحق والضلال؟ قلت: لأن صاحب الحق كأنه مستعل على فرس جواد يركضه حيث شاء، والضال كأنه منغمس في ظلام مرتبك فيه لا يدري أين يتوجه).(٦٩)

وقد امتدح أحمد بن المنير هذ الأسلوب من الزمخشري على هامش الكشاف فقال: (وهذا تفسير مهذب وافتنان مستعذب، رددته على سمعي فزاد رونقاً بالترديد، واستعاده الخاطر، كأني بطيء الفهم حين يفيد، ولا ينبغي أن ينكر بعد ذلك على الطريقة التي أكثر تعاطيها متأخرو الفقهاء في مجادلاتهم ومحاوراتهم، وذلك قولهم: أحد الأمرين لازم على الإبهام، فهذا المسلك من هذا الوادي غير بعيد، فتأمله، والله الموفق).(٧٠)

قال ابن عاشور عند نفس الآية: (وأعيد الأمر بالقول لزيادة الاهتمام بالمقول فإن أصل الأمر بالقول في مقام التصدي للتبليغ دال على الاهتمام، وإعادة ذلك الأمر زيادة في الاهتمام.

و﴿ مَن ﴾ استفهام للتنبيه على الخطأ ولذلك أعقب بالجواب من طرف السائل بقوله: ﴿ قُلِ ٱللَّهُۖ ﴾ لتحقق أنهم لا ينكرون ذلك الجواب كما في قوله تعالى: ﴿ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ ﴾ يونس: ٣١ وعطف على الاستفهام إبراز المقصد بطريقة خفية توقع الخصم في شَرَك المغلوبية وذلك بترديد حالتي الفريقين بين حالة هدى، وحالة ضلال؛ لأن حالة كل فريق لما كانت على الضد من حال الفريق الآخر بين موافقة الحق وعدمها، تعين أن أمر الضلال والهدى دائر بين الحالتين لا يعدونهما. ولذلك جيء بحرف ﴿ أَوۡ ﴾ المفيد للترديد المنتزع من الشك.

وهذا اللون من الكلام يسمى الكلام المنصف وهو أن لا يترك المجادل لخصمه موجب تغيظ واحتداد في الجدال، ويسمى في علم المناظرة إرخاء العنان للمناظِر، ومع ذلك فقرينة إلزامهم الحجة قرينة واضحة.

ومن لطائفه هنا أن اشتمل على إيماء إلى ترجيح أحد الجانبين في أحد الاحتمالين بطريق مقابلة الجانبين في ترتيب الحالتين باللف والنشر المرتب وهو أصل اللّف.

فإنه ذكر ضمير جانب المتكلم وجماعته وجانب المخاطبين، ثم ذكر حال الهدى وحال الضلال على ترتيب ذكر الجانبين، فأومأ إلى أن الأولين موجهون إلى الهدى، والآخرين موجهون إلى الضلال المبين، لا سيما بعد قرينة الاستفهام، وهذا ـ أيضا ـ من التعريض وهو أوقع من التصريح لا سيما في استنزال طائر الخصم.

وفيه ـ أيضا ـ تجاهل العارف فقد التأم في هذه الجملة ثلاثة محسنات من البديع ونكتة من البيان فاشتملت على أربع خصوصيات.

وجيء في جانب أصحاب الهدى بحرف الاستعلاء المستعار للتمكن تمثيلا لحال المهتدي بحال متصرف في فرسه يركضه حيث شاء متمكن من شيء بلغ به مقصده.

وهي حالة مماثلة لحال المهتدي على بصيرة فهو يسترجع مناهج الحق في كل صوب. متسع النظر، منشرح الصدر: ففيه تمثيلية مكنية وتبعية.

وجيء في جانب الضالين بحرف الظرفية المستعار لشدة التلبيس بالوصف تمثيلا لحالهم في إحاطة الضلال بهم بحال الشيء في ظرف محيط به لا يتركه يفارقه، ولا يتطلع منه على خلاف ما هو فيه من ضيق يلازمه. وفيه ـ أيضا ـ تمثيلية تبعية، وهذا ينظر إلى قوله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ الأنعام: ١٢٥. فحصل في الآية أربع استعارات وثلاثة محسنات من البديع وأسلوب بياني، وحجة قائمة، وهذا إعجاز بديع).(٧١)

٢. قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَٰدِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ غافر: ٢٨

قام مؤمن آل فرعون ينصح قومه ويبن لهم جرم فعلهم، وما يقدمون عليه من قتل نفس محرمة، قال صاحب الكشاف: (وقول المؤمن: ﴿ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ﴾ غافر: ٢٩ دليل ظاهر على أنه يتنصَّح لقومه ﴿ أَن يَقُولَ ﴾ لأن يقول، وهذا إنكار منه عظيم وتبكيت شديد، كأنه قال: أترتكبون الفعلة الشنعاء التي هي قتل نفس محرمة، وما لكم علة قط في ارتكابها إلاّ كلمة الحق التي نطق بها وهي قوله: ﴿ رَبِّيَ ٱللَّهُ ﴾ مع أنه لم يحضر لتصحيح قوله بينة واحدة، ولكن بينات عدّة من عند من نسب إليه الربوبية، وهو ربكم لا ربه وحده، وهو استدراج لهم إلى الاعتراف به، وليليِّن بذلك جماحهم ويكسر من سورتهم، ولك أن تقدر مضافاً محذوفاً، أي: وقت أن يقول.

والمعنى: أتقتلونه ساعة سمعتم منه هذا القول من غير روية، ولا فكر في أمره. وقوله: ﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ يريد: بالبينات العظيمة التي عهدتموها وشهدتموها.

ثم أخذهم بالاحتجاج على طريقة التقسيم فقال: لا يخلو من أن يكون كاذباً أو صادقاً، ﴿ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ﴾ أي: يعود عليه كذبه ولا يتخطاه ضرره، ﴿ وَإِن يَكُ صَٰدِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ﴾ ما يعدكم إن تعرّضتم له. فإن قلت: لم قال: بعض ﴿ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ﴾ وهو نبيّ صادق، لا بد لما يعدهم أن يصيبهم كله لا بعضه. قلت: لأنه احتاج في مقاولة خصوم موسى ومنا كريه إلى أن يلاوصهم ويداريهم،

ويسلك معهم طريق الإنصاف في القول، ويأتيهم من وجهة المناصحة، فجاء بما علم أنه أقرب إلى تسليمهم لقوله، وأدخل في تصديقهم له وقبولهم منه.

فقال: ﴿ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ﴾ وهو كلام المنصف في مقاله غير المشتط فيه، ليسمعوا منه ولا يردّوا عليه، وذلك أنه حين فرضه صادقاً فقد أثبت أنه صادق في جميع ما يعد، ولكنه أردفه ﴿ يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ﴾ ليهضمه بعض حقه في ظاهر الكلام، فيريهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وافياً، فضلاً أن يتعصب له، أو يرمى بالحصا من ورائه، وتقديم الكاذب على الصادق أيضاً من هذا القبيل).(٧٢)

٣. قال الله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ التوبة: ٥٢.

أمر الله المؤمنين بالنفير في سبيل الله، ووعدهم بالخير، فتقدم المنافقون إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لطلب الاعتذار عن الخروج تثاقلا، ودعة وركونا إلى الراحة، ويؤكدون اعتذارهم بالحلف كذبا، فقبل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عذرهم؛ ففضحهم الله تعالى بأن عاتب رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بشأنهم وبين له أن علامة المؤمنين بالصدق، وأن علامة المنافقين بالكذب، وأن لا منفعة من خروجهم مع المؤمنين.

ولو خرجوا معكم لطلبوا لكم الهزيمة، وفتشوا عن عيوبكم، وأفشوا أسراركم، وفي ذلك تأثير على نفوس بعضكم، وهم قد قصدوا إهلاك النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل ذلك من كل وجه كراهة ظهور دين الإسلام، فسقطوا في الكفر والنفاق. فكان مقال حالهم يقولون: إن أصابك ـ يا محمد ـ الغنيمة والنصر ساءهم ذلك، وإن

تصبك النكبة والشدة والهزيمة. ﴿ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴾ التوبة: ٥٠ بما أصابك، وبتخلفهم.

فلقن الله نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ الجواب بقوله: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ... ﴾ التوبة: ٥١؛ لأنه ـ تعالى ـ هو الولي والناصر والحافظ قال ابن عاشور: (فأثبت للمنافقين عدم اكتراث المسلمين بالمصيبة، وانتفاء حزنهم عليها؛ لأنهم يعلمون أن ما أصابهم ما كان إلا بتقدير الله لمصلحة المسلمين في ذلك، فهو نفع محض كما تدل عليه تعدية فعل ﴿ كَتَبَ ﴾باللام المؤذنة بأنه كتب ذلك لنفعهم وموقع هذا الجواب: هو أن العدو يفرح بمصاب عدوه؛ لأنه ينكد عدوه ويحزنه، فإذا علموا أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يحزن لما أصابه زال فرحهم. وفيه تعليم للمسلمين التخلق بهذا الخلق: وهو أن لا يحزنوا لما يصيبهم؛ لئلا يهونوا وتذهب قوتهم.[(٧٣)]

ثم دار الحوار بين فريقي المؤمنين، و المنافقين، فأي الفريقين كان رابحا وناجحا؟! ومن الذي أصابه الغنيمة والنصر والفوز؟ ومن الذي وقع في الشدة والنكبة والهزيمة؟ ومن الذي غامر وتهور فخسر؟ ومن الذي أخذ حذره وتخلف فلم يقع بالمصيبة؟ واستمر الحوار، دون حسم الموقف بينهم.

فخاطب الله ـ تعالى ـ نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بخطاب أخرج فيه الكلام مخرج الشك في اللفظ دون الحقيقة لضرب من المسامحة وحسم العناد، والمكابرة.

فقال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ التوبة: ٥٢ والشاهد من الآية: ﴿ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾

قال ابن عاشور: (والمعنى لا تنتظرون من حالنا إلا حسنة عاجلة أو حسنة آجلة، فأما نحن فننتظر من حالكم أن يعذبكم الله في الآخرة بعذاب النار، أو في الدنيا بعذاب على غير أيدينا من عذاب الله في الدنيا: كالجوع والخوف، أو بعذاب بأيدينا، وهو عذاب القتل، إذا أذن الله بحربكم)[٧٤] ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ ﴾ لانقطاع حُكم الأمرِ الأولِ بالثاني وإن كان أمرَ الغائب، وأما على الوجه الأولِ فهي لإبراز كمالِ العنايةِ بشأن المأمورِ به، والإشعارِ بما بينه وبين ما أُمر به أولاً من الفرق في السياقِ.

والتربُّصُ: التمكّثُ مع انتظار مجيءِ شيءٍ خيراً كان أو شراً، والباءُ للتعدية وإحدى التاءين محذوفةٌ أي ما تنتظرون بنا ﴿ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ ﴾ أي العاقبتين اللتين كلُّ واحدةٍ منهما هي حُسنى العواقبِ، وهما النصرُ والشهادةُ، وهذا نوعُ بيانٍ لما أُبهم في الجواب الأول، وكشفٌ لحقيقة الحالِ؛ بإعلام أن ما يزعُمونه مضرَّةً للمسلمين من الشهادة أنفعُ مما يعُدّونه منفعةً من النصر والغنيمة. ﴿ وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ ﴾ إحدى السوأَيَيْن من العواقب إما ﴿ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ ﴾ كما أصاب مَن قبلكم من الأمم المهلَكة والظرفُ صفةُ عذاب، ولذلك حُذف عاملُه وجوباً ﴿ أَوۡ ﴾ بعذاب ﴿ بِأَيۡدِينَا ﴾ وهو القتلُ على الكفر، ﴿ فَتَرَبَّصُوٓاْ ﴾ الفاءُ فصيحةٌ أي إذا كان الأمر كذلك فتربصوا بنا ما هو عاقبتُنا، ﴿ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ ما هو عاقبتُكم فإذا لقِيَ كلٌّ منا ومنكم ما يتربصه لا تشاهدون إلا ما يُسرنا ولا نشاهد إلا ما يسوءكم).[٧٥]

(ومعنى الكلام توبيخ لهم وتخطئة لتربصهم لأنهم يتربصون بالمسلمين أن يقتلوا، ويغفلون عن احتمال أن ينصروا، فكان المعنى: لا تتربصون بنا إلا أن نقتل أو نغلب وذلك إحدى الحسنين).[٧٦]

وقال الرازي: (فالمنافق لا يتربص بالمؤمن إلا إحدى الحالتين المذكورتين، وكل واحدة منهما في غاية الجلالة والرفعة والشرف، والمسلم يتربص بالمنافق إحدى الحالتين المذكورتين، أعني البقاء في الدنيا مع الخزي والذل والهوان، ثم الانتقال إلى عذاب القيامة والوقوع في القتل والنهب مع الخزي والذل، وكل واحدة من هاتين الحالتين في غاية الخساسة والدناءة. ثم قال تعالى للمنافقين حكاية عن المؤمنين: ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ﴾ بنا إحدى الحالتين الشريفتين ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ وقوعكم في إحدى الحالتين الخسيستين النازلتين).(٧٧)

والخلاصة: أن الآيات التي ورد ذكرها في موضوع مجادلة المنكرين في غلبة الحق على الباطل:

تضمنت طرقا وأساليب متعددة ومتنوعة من الكلام المنصف(٧٨) جاءت على النحو الآتي:

١. الاستفهام التقريري بـ"مَنْ" الذي يستفهم به عن الجنس من ذوي العلم، ثم خرج إلى التقرير، وهو من معاني الاستفهام، ويراد به حمل المخاطب على الاعتراف والإقرار بما يعرفه، كما في قوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فجاء الاستفهام بـ" مَنْ " ليشعر بأن المخاطبين مقرّون بالمقصود بقلوبهم، إلاّ أنهم ربما أَبوا أن يتكلموا به؛ لأن الذي تمكن في صدورهم من العناد، وحب الشرك قد ألجم أفواههم عن النطق بالحق مع علمهم بصحته، ولأنهم إن تفوهوا بأن الله رازقهم: لزمهم أن يقال لهم: فما لكم لا تعبدون من يرزقكم، وتؤثرون عليه من لا يقدر على الرزق؟ فكأنهم كانوا يقرّون بألسنتهم مرّة، ومرّة كانوا يتلعثمون عناداً وإصراراً وحذاراً من إلزام الحجة.

٢. الكلام المنصف، ويتمثل بقول الله: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ ومعناه: وإنّ أحد الفريقين من الذين يوحدون الرازق من السموات والأرض بالعبادة ومن الذين يشركون به الجماد الذي لا يوصف بالقدرة، لعلى أحد الأمرين من الهدى والضلال، وهذا من الكلام المنصف الذي كل من سمعه من موالٍ أو منافٍ قال لمن خوطب به: قد أنصفك صاحبك.

٣. التعريض والتورية، الواردان في آية سورة سبأ المتضمن تقدمة ما قدم الله من التقرير البليغ: دلالة غير خفية على من هو من الفريقين على الهدى، ومن هو في الضلال المبين، ولكن التعريض، والتورية أنضل بالمجادل إلى الغرض، وأهجم به على الغلبة، مع قلة شغب الخصم، وفلّ شوكته بالهويناء.

٤. المخالفة بين حروف الجر ومعانيها، فقد خولف بين حرفيّ الجرّ الداخلين على الحق والضلال؛ في قوله: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ لأن صاحب الحق كأنه مستعل على فرس جواد يركضه حيث شاء، والضال كأنه منغمس في ظلام مرتبك فيه لا يدري أين يتوجه.

٥. عطف المقصد على الاستفهام بطريقة خفية، توقع الخصم في شَرَك المغلوبية؛ وذلك بترديد حالتي الفريقين بين حالة هدى، وحالة ضلال؛ لأن حالة كل فريق لما كانت على الضد من حال الفريق الآخر؛ بين موافقة الحق، وعدمها، تعين أن أمر الضلال والهدى دائر بين الحالتين لا يعدونهما.

٦. الاحتجاج على طريق التقسيم؛ فالاحتجاج لا يخلو من أن يكون كاذباً أو صادقاً، ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥ﴾ أي: يعود عليه كذبه ولا يتخطاه ضرره، ﴿وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ﴾ ؛ لأنه احتاج في مقاولة خصوم موسى ومناكريه إلى

أن يلاوصهم، ويداريهم، ويسلك معهم طريق الإنصاف في القول، ويأتيهم من وجهة المناصحة.

٧. إخراج الكلام مخرج الشك في اللفظ؛ دون الحقيقة لضرب من المسامحة؛ كما في قول الله: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ التوبة: ٥٢ فخاطب الله ـ تعالى ـ نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بخطاب أخرج فيه الكلام مخرج الشك في اللفظ دون الحقيقة لضرب من المسامحة وحسم العناد، والمكابرة.

٨. التوبيخ، فقوله تعالى: ﴿ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ في الآية توبيخ للمنافقين وتخطئة لتربصهم؛ لأنهم يتربصون بالمسلمين أن يقتلوا، ويغفلون عن احتمال أن ينصروا، فكان المعنى: لا تتربصون بنا إلا أن نقتل، أو نغلب وذلك إحدى الحسنيين.

٩. إرخاء العنان للمناظِر، وهو أن لا يترك المجادل لخصمه موجب تغيظ، واحتداد في الجدال، ومع ذلك فقرينة إلزامهم الحجة قرينة واضحة.

١٠. اللف والنشر، المشتمل على الإيماء إلى ترجيح أحد الجانبين في أحد الاحتمالين بطريق مقابلة الجانبين في ترتيب الحالتين باللف والنشر المرتب وهو أصل اللّف.

الخاتمـة

وقفت ـ بعد حمد الله وتوفيقه ـ من خلال تتبعي لهذه الدراسة على عدد من أساليب النظم القرآني وطرقه المتنوعة التي وردت عند بعض المفسرين تحت عنون: (الكلام المنصف في القرآن الكريم وأثره في إظهار الحجة على الخصم) من رحاب عدد من الآيات القرآنية؛ وتوصلت إلى النتائج الآتية:

١. أن ظاهرة الكلام المنصف سمة أسلوبية في الخطاب القرآني؛ وقد ارتبطت بالاستفهام في كثير من الأماكن؛ لاجرم أن الاستفهام أنسب للمحاجة والمجادلة؛ لأن فيه إقبال السامع على المتكلم بذهنه؛ ومن ثم يؤدي الاستفهام وظيفة تنبيهية؛ وقد وظَّف النظم القرآني الكلام المنصف في قالب الاستفهام أحيانا الذي خرج إلى بعض الأغراض البلاغية كـ:

أ- الإنكار. ب- والتقرير. ج- والتهديد والوعيد.

٢. أن من أكثر حروف الاستفهام طواعية واستعمالا في الكلام المنصف "الهمزة" التي خرجت عن أصل وضعها اللغوي: التصديق والتصور؛ إلى الإنكار والتقرير وغيرهما.

٣. أن استدراج الخصم واستمالته من أسمى مقاصد الكلام المنصف.

٤. الكلام المنصف نوع من أنواع الخطابات التي تميزه بالرفق، واختيار الكلمات، والمصطلحات التي تجذب سمع المجادل، وترخي له العنان لقبول الحجة.

٥. الكلام المنصف يربي في الإنسان عقلاً راجحاً؛ ذا أفق واسع يوصله إلى معرفة الحق عن طريق البحث والاطلاع.

٦. يُباح استعمال الكلام المنصف مداراة للخصم، ومسايرةً له، ولو حُكِيَ قوله، وسُيْيِرَ به على منواله؛ لِيُثْبِتَ له الحق؛ دون مماراة.

٧. يتناول الكلام المنصف قضية واحدة ذات هدف محدد، لا يدع للخصم مجالاً للطيش، أو الخلط، حتى يتقرر الحق ويثبت.

٨. الكلام المنصف لا يبيح لصاحبه أن يتخلى عن الحق الذي يدعو إليه، ويتبناه، ولا يُلزم خصمه به، ولكنه يقيم عليه الحجة.

٩. يمثل الكلام المنصف أرقى أنواع المخاطبات، والقرآن الكريم استعمله ليحث ممتثليه سلوك هذا المسلك ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ البقرة: ٨٣.

١٠. تنوع استعمال بعض أساليب البلاغة لإجراء الكلام المنصف في القرآن الكريم بين المقاصد البلاغية كالتعريف والاستفهام الإنكاري، واللف والنشر، وغيرها، وبعض المقاصد الكلامية كالاستدلال على أساس المشاهدة، والتنبيه على التناقض في الدعاوي، وغيرها.

الهوامش والتعليقات:

(١) لسان العرب:١٢/ ٥٢٢ ، مادة (كلم).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) لسان العرب:٩/ ٣٣٠ ، مادة (نصف).

(٤) التحرير والتنوير:٢٢/ ٥٨، لابن عاشور.

(٥) كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: ٣ / ١٤٩، ليحي بن حمزة بن علي العلوي اليمني.

(٦) انظر: البرهان في علوم القرآن: ٣/ ٤٦٥

(٧) الدر المصون في علم الكتاب المكنون: ١/ ٤٢٠٣، للسمين الحلبي

(٨) اللباب في تفسير علوم الكتاب: ١٣/ ١٤٨، لابن عادل.

(٩) الكشاف :٢/ ١٣٧ ، للزمخشري.

(١٠) المصدر نفسه.

(١١) الانتصاف على هامش الكشاف:٢/ ٤٠ لأحمد بن المنير.

(١٢) التحرير والتنوير:٦/ ١٧٧، لابن عاشور.

(١٣) نفس المصدر .

(١٤) المصدر السابق:٦/ ١٧٧، لابن عاشور.

(١٥) معاني القرآن:٢/ ١٤ ـ للفراء.

(١٦) معاني القرآن:١/ ٢٤٤ـ للأخفش

(١٧) معاني القرآن:٢/ ٤٥٠ . للنحاس

(١٨) معاني القرآن: ٢/ ٢٦٧. للزجاج

(١٩) التفسير الكبير: ٦/ ٣٤٥، لفخر الدين الرازي.

(٢٠) التفسير الكبير: ٦/ ٣٤٤,٣٤٥، لفخر الدين الرازي، وراجع: روح المعاني ٥/ ٣٩٥، للآلوسي.

(٢١) محاسن التنزيل: ٦/ ٢٣٧٥. لجمال الدين القاسمي

(٢٢) محاسن التنزيل: ٦/ ٢٣٧٣. لجمال الدين القاسمي.

(٢٣) أضواء البيان:١/ ٤٨٦ـ ٤٨٧. للشنقيطي.

(٢٤) الملل والنحل:٢/ ٤٩.للشهرستاني.

(٢٥) تفسير الشعراوي: ١/ ٣٧٥٠ . صورة من التفسير.

(٢٦) جامع البيان في تأويل آي القرآن:١١/ ٤٧٠، ح: (١٣٤٤١) للطبري.

(٢٧) جامع البيان في تأويل آي القرآن:١١/ ٤٧٥، للطبري.

(٢٨) البداية والنهاية: ١/ ١٦٥، لابن كثير، وقال: (وهو مستند إلى أخبار إسرائيلية لا يوثق بها ولاسيما إذا خالفت الحق).

(٢٩) من بلاغة القرآن: ٢٦٣ . أحمد أحمد بدوي.

(٣٠) أخرجه: البخاري في صحيحه:٥/ ١٨٢: ك: الجنائز: ب: ما قيل في أولاد المشركين: ح:(١٢٩٦)، ومسلم في صحيحه:١٣/ ١٢٧: ك: البر والصلة والأدب: ب: معنى كل مولود يولد على الفطرة: ح: (٤٨٠٣).

(٣١) أخرجه: مسلم في صحيحه:١٤/ ٢٤:ك: الجنة وصفة نعيمها وأهلها: ب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة:ح: (٥١٠٩)

(٣٢) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٢٩١ـ ٢٩٣، لابن كثير، وانظر: البداية والنهاية: ١/ ١٦٥ له.

(٣٣) هذه الأساليب استخلصها الباحث من المطلب نفسه كخلاصة، ورد توثيقها في مواقعها من المطلب.

(٣٤) نظم الدرر في تناسب الآي والسور: ٧/ ٣٧٦، للبقاعي.

(٣٥) الكشاف: ٦/ ١٧٢، للزمخشري.

(٣٦) التحرير والتنوير: ٢٥/ ٩٠,٩١، لابن عاشور.

(٣٧) روح المعاني :١٨ / ٢٢٢. للآلوسي.

(٣٨) غرائب القرآن ورغائب الفرقان: ٤/ ٥٠٥، للنيسابوري.

(٣٩) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان:١/ ٤٩٩، للسعدي.

(٤٠) هذه الأساليب استخلصها الباحث من المطلب نفسه كخلاصة، ورد توثيقها في مواقعها من المطلب.

(٤١) تفسير القرآن العظيم:٥/ ١٢٢، لابن كثير.

(٤٢) التحرير والتنوير:١٤/ ١٦٨.لابن عاشور.

(٤٣) جامع البيان: ١٨/ ٤٠٧ ، للطبري.

(٤٤) التفسير الكبير :١٠/ ٤٩١، للرازي.

(٤٥) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٥/ ٢٨٢ ، للبقاعي.

(٤٦) تفسير القرآن العظيم:٥/ ٣٣٠، لابن كثير.

(٤٧) إرشاد العقل السليم::٥/ ١١٠، لأبي السعود.

(٤٨) تفسير القرآن العظيم: ٥/ ٣٣٠ ، لابن كثير .

(٤٩) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم : ٦/ ٣٣٩، لأبي السعود.

(٥٠) المصدر السابق: ٥ / ٢٦٥، لأبي السعود.

(٥١) التحرير والتنوير:٢٠/ ١٩٠، لابن عاشور.

(٥٢) ديوان كعب بن زهير: ٦٦.

(٥٣) ديوان كعب بن زهير: ٦٦.

(٥٤) التحرير والتنوير :٢٢/ ٥٨ ـ ٥٩. لابن عاشور.

(٥٥) روح المعاني :١٦/ ٣٠٤.للآلوسي.

(٥٦) الكشاف: ٦/ ٤٣٤، للزمخشري.

(٥٧) المحرر الوجيز: ٧/ ٤٧ ، لابن عطية.

(٥٨) أخرجه البخاري في صحيحه: ٦/ ١٧٤ : ك: التفسير: ب: ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾.

(٥٩) محاسن التنزيل: ١٧/ ٦٢١٤، لجمال الدين القاسمي.

(٦٠) أخرجه البخاري في صحيحه: ١/ ٨ : ك: بدء الوحي: ب: ، ح: (٦)، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ

(٦١) ذكره صاحب جامع الأصول في أحاديث الرسول: ٨/ ٥٨٥ ح: (٦٤٠٥) لابن الأثير، وهو عند الترمذي من زيادة رزين، وسنده ضعيف، والحديث جاء في أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ .

(٦٢) تفسير القرآن العظيم:٤/ ٣١٦ـ ٣١٧، لابن كثير.

(٦٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: ٣/ ٣٤٠، لأبي السعود.

(٦٤) التحرير والتنوير:١١/ ٢٤٢ ـ٢٤٤، لابن عاشور.

(٦٥) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: ٣/ ٣٨٥، لأبي السعود.

(٦٦) تفسير القرآن العظيم:٧/ ١٤٦ ، لابن كثير.

(٦٧) هذه الأساليب استخلصها الباحث من المطلب نفسه كخلاصة، ورد توثيقها في مواقعها من المطلب.

(٦٨) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٦/ ٤٩٥، للبقاعي.

(٦٩) الكشاف: ٥/ ١٢١. للزمخشري.

(٧٠) الانتصاف على هامش الكشاف:٥/ ١٢١ ، لأحمد بن المنير.

(٧١) التحرير والتنوير :٢٢ /٥٨ـ ٥٩. لابن عاشور.

(٧٢) الكشاف: ٦/ ١٠٧. للزمخشري.

(٧٣) التحرير والتنوير: ١٠/ ١١٧، لابن عاشور.

(٧٤) المصدر نفسه.

(٧٥) إرشاد العقل السليم: ٣/ ١٧٧، لأبي السعود.

(٧٦) التحرير والتنوير: ١٠/ ١١٩، لابن عاشور.

(٧٧) التفسير الكبير:٨/ ٥١، للرازي.

(٧٨) هذه الأساليب استخلصها الباحث من المطلب نفسه كخلاصة، ورد توثيقها في مواقعها من المطلب.

قائمة المصادر والمراجع

١. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم المشهور ب (تفسير أبي السعود) لمحمد بن العمادي (ت: ٩٨٨ هـ) دار الفكر – بيروت – الطبعة الأولى سنة (١٤٢١هـ – ٢٠٠١ م).

٢. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر، الجكني، الشنقيطي، (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان ـ الطبعة: ١٤١٥ هـ- ١٩٩٥م.

٣. أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بـ (تفسير البيضاوي) لناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر البيضاوي (المتوفى: ٧٩١ هـ) دار الفكر – بيروت – طبعة سنة (١٤١٦هـ – ١٩٩٦م).

٤. الانتصاف على هامش الكشاف، لأحمد بن المُنَيِّر، الناشر دار الكتاب العربي. الطبعة الثانية (١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م).

٥. البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر القرشي، الدمشقي، الحافظ، أبو الفداء، (المتوفى: ٧٧٤هـ)، الناشر: مكتبة المعارف، لبنان ـ بيروت ـ الطبعة الأولى: ١٤٠٨هـ – ١٩٨٧م.

٦. البرهان في علوم القرآن، لمحمد بن عبد الله بن بهادر، بدر الدين، الزركشي، (المتوفى: ٧٩٤هـ)، الناشر: دار إحياء الكتب العربية ـ عيسى البابى الحلبي وشركائه، الطبعة: الأولى: ١٣٧٦هـ – ١٩٥٧م، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.

٧. تاج العروس من جواهر القاموس، لمحمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسني، أبو الفيض، الملقب بمرتضى الزبيدي، الناشر دار الهداية، تحقيق مجموعة من المحققين.

٨. التحرير والتنوير، المعروف بتفسير ابن عاشور، لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور، التونسي، (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، الناشر: مؤسسة التاريخ العربي، بيروت ـ لبنان ـ الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

٩. التعريفات، علي بن محمد الجرجاني (ت ٨١٦ هـ) تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الأولى سنة (١٤٠٥هـ).

١٠. تفسير الفخر الرازي، المشتهر بالتفسير الكبير، ويعرف بمفاتيح الغيب، محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين، التيمي، الرازي، الملقب بفخر الدين، خطيب الري، أبو عبد الله، (المتوفى: ٦٠٦هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة: الأولى: ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠ م.

١١. تفسير القاسمي، المسمى: محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، الناشر: دار الكتب العلمية، لبنان ـ بيروت ـ الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ.

١٢. تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ) مكتبة النهضة الحديثة الطبعة الأولى سنة (١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م)

١٣. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، المكتبة الشاملة.

١٤. جامع الأصول في أحاديث الرسول، لمبارك بن محمد الجزري، مجد الدين، أبو السعادات، المعروف بابن الأثير (المتوفى: ٦٠٦هـ)، الناشر: مكتبة الحلواني - مطبعة الملاح، مكتبة دار البيان.

١٥. جامع البيان في تأويل آي القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر، الطبري، (المتوفى: ٣١٠هـ)، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى: ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، تحقيق: أحمد محمد شاكر.

١٦. الجامع الصحيح، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري، الجعفي، أبو عبدالله، (المتوفى: ٢٥٦ هـ)، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة: الأولى: ١٤٢٢هـ، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر.

١٧. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أحمد بن يوسف، المعروف بالسمين الحلبي، المتوفى: (٧٥٦هـ)، الناشر: دار القلم، تحقيق: أحمد محمد الخراط.

١٨. ديوان كعب بن زهير، تحقيق: علي فاعور، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ بتاريخ: ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

١٩. ديوان حسان، حسان بن ثابت، المكتبة الشاملة.

٢٠. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: للعلامة أبي الفضل شهاب الدين سيد محمود الألوسي البغدادي (٢ت ١٢٧ هـ) دار الفكر.

٢١. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيريّ، النيسابوريّ، أبو الحسن، (المتوفى: ٢٦١هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

٢٢. الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحي بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليمني، دار الكتب العلمية ـ لبنان ـ بيروت.

٢٣. غرائب القرآن ورغائب الفرقان، للحسن بن محمد بن حسين، القميّ، النيسابوريّ، نظام الدين الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى: ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦ م.

٢٤. الفروق اللغوية، لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري، (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ)، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم، الناشر: دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر.

٢٥. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، للعلامة محمود بن عمر بن أحمد، الزمخشريّ، جار الله، أبو القاسم، الزمخشري (ت: ٥٣٨ هـ) الناشر دار الكتاب العربي. الطبعة الثانية (١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م).

٢٦. اللباب في تفسير علوم الكتاب، لعمر بن علي الحنبلي، الدمشقي، النعماني، سراج الدين، أبو حفص، المعروف بابن عادل، (المتوفى: ٨٨٠هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى: ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.

٢٧. لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن منظور الأفريقي، المصري، (ت ٧١١ هـ)، دار صادر، لبنان ـ بيروت ـ الطبعة الأولى.

٢٨. المحرر الوجيز، عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية، الأندلسي، المحاربي، أبو محمد، (المتوفى ٥٤٦هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، لبنان ـ بيروت ـ الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م، تحقيق: عبد السلام عبدالشافي محمد.

٢٩. معاني القرآن، يحيى بن زياد الفراء، أبو زكريا، (المتوفى: ٢٠٧هـ)، عالم الكتب، الطبعة الثالثة سنة (١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م).

٣٠. معاني القرآن، لسعيد بن مسعدة، الأخفش الأوسط، أبو الحسن، (المتوفى: ٢١٥هـ) الناشر: مكتبة، القاهرة، الطبعة الأولى: ١٤١١هـ – ١٩٩٠م، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط.

٣١. معاني القرآن وإعرابه، لإبراهيم بن السّريّ، أبو أسحاق، الزجاج، (المتوفى: ٣١١هـ)، الناشر: عالم الكتب، لبنان ـ بيروت ـ الطبعة الأولى: ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي.

٣٢. معاني القرآن الكريم، أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس، الناشر: جامعة أم القرى ـ مكة المكرمة الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ، تحقيق: محمد علي الصابوني.

٣٣. الملل والنحل، محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد، الشهرستاني، الناشر: دار المعرفة ـ بيروت، ١٤٠٤هـ، تحقيق: محمد سيد كيلاني.

٣٤. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور إبراهيم بن عمر بن حصن الرباط البقاعي (المتوفى: ٨٨٥ هـ)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.